FROM THE AUTHOR OF "STORY OF SOMEONE"

صفر

FIRASS JUBRANE

A Man with an Expiration Date

A Man with an Expiration Date.

FIRASS JUBRANE

2026

All the events in this story are inspired by fiction and any resemblance to this events, personalities or names it is coincidence no more.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

إلى كلّ والدٍ تعلّم من ابنه كيف يكون الرجل أباً.. قبل أن يتعلّم الابنُ منه كيف يصير الفتى رجلاً.

إلى كلّ من وقف عند نقطة الصفر وظنّها النهاية.. بينما هي نقطةُ البدء الحقيقية لكلّ شيء.

إلى أولئك الذين يبتسمون في وجه الكارثة.. لمعرفتهم أن الصراخ لن يُغيّر شيئاً من موعد البث.

إلى نسختنا الشابة.. التي نرجو ألا تُكرر أخطاءنا.

إلى روح أبي...

جوبا

Expired, but not yet gone

ثَمَّةَ رقمٌ واحدٌ يُخيف الإنسانَ أكثرَ من أيّ رقمٍ آخر، لا لِعِظَمِهِ، بل لأنّهُ «لا شيء»: الصفر.

لا قيمةَ له إن وقفَ وحده، ولا معنى له إن لم يُضَف إلى ما قبله أو بعده. ومع ذلك، فإنّ أكثرَ لحظاتِ حياتنا صدقاً هي تلك التي نقفُ فيها أمامه مباشرةً:

صفرٌ في البنك، صفرٌ من الوقت، وعِندَ حافّةِ الشفاء.

عندها فقط، حين تتساقطُ كلُّ الأرقامِ من حولنا، نكتشفُ من نكونُ حقاً حين لا يبقى لدينا ما نخسره.

هذه روايةٌ عن رجلٍ وصلَ إلى «صفرهِ الشخصي»، فقرَّرَ أن يفعلَ ما لم يجرؤ عليه طوالَ ثمانيةَ عشرَ عاماً: أن يقولَ الحقيقة. ليست حقيقةً كبرى عن الكونِ أو الوجود، بل حقائق صغيرة، يومية، مؤجَّلة؛ عن زوجةٍ لم يحبّها، ومديرٍ لم يحترمه، وابنٍ لم يعرف كيف يحضنه في الوقتِ المناسب.

ستقرأُ في الفصولِ التالية عن أَبٍ يفقدُ كلّ شيءٍ ليربحَ ابنه، وعن زوجةٍ قَسَت لأنها خافَت، وعن جدٍّ نَسِيَتْهُ الذاكرةُ فمنحه النسيانُ حصانةً غريبةً

ضد هذا العبث، وعن حقيبةٍ سوداء تتغيّرُ محتوياتها بقدرِ ما تتغيّرُ معها الأقدار. لن تجدَ هنا بطلًا بالمعنى التقليدي، ولا شريراً خالصاً، بل أناساً عاديين، مثلنا تماماً، دفعتهم لحظةٌ واحدةٌ من اليأسِ إلى حافةٍ لا يعرفون كيف انزلقوا إليها، ولا كيف يعودون منها.

قد تضحكُ في مواضعَ لا يُفترضُ أن تضحك فيها.. لا بأس؛ فهذا هو العقدُ الذي تبرمه هذه الروايةُ معك منذ سطرها الأوّل: أنّ الحياة، في أحلك لحظاتها، لا تكفّ عن كونها – أحياناً - مضحكةً إلى حدّ الألم.

أهلًا بك في حكايةِ يونس.. أهلًا بك في الصفرِ الذي يبدأُ منه كلُّ شيء.

فـراس جبـــــران

25-07-2026

"ثمة فارق شاسع بين أن تكون «والداً» وأن تكون «أباً»؛ فالأولى حادثة بيولوجية محضة... منح حياة وتمرير جينات قد يقعان مصادفة أو بدواعي الواجب. أما الثانية فخيار روحي صلب، ومعركة يومية يخوضها الرجل ليعلّم إنساناً آخر كيف يستند إلى قدميه في عالم آيل للسقوط.

الوالد ينقل اسم العائلة.. أما الأب فهو الذي يؤوب بابنه ليزرع في روحه كيفية مواجهة العالم، حين يختفي الاسم وتتلاشى الألقاب".

الكاتب

Copyright © **2026** Frass Jubrane. All rights reserved.

الفصل الأول

الحياة مع سبق الإصرار

يمتلك يونس صوتاً رخيماً يبثّه كل مساء عبر برنامجه الإذاعي الشهير "سكينة"، ليقنع الملايين بأسرار الهدوء والتفاهم الزوجي، بينما لا ينعم شارعه هو بالسكينة إلا حين يكون خارج بيته! فزوجته لمياء وحدها كفيلة بأن تجعله يتساءل كل ليلة في سرّه: من قال إن الديناصورات انقرضت حقاً؟!

ثمة وحوش لا تنقرض؛ هي فقط تتزوج، وتنجب، وتطبخ العشاء كل مساء.

توقف يونس أمام باب شقته وهو يحمل كيساً ورقياً صغيراً بيده اليمنى، بينما أخذ يدير المفتاح بين أصابع يده الأخرى ببطء، كأنما يبحث عن الشجاعة لا عن فتحة القفل. نظر إلى ساعة يده؛ كانت السابعة إلا خمس دقائق. ابتسم ابتسامة صغيرة وحدّث نفسه : "ممتاز.. وصلت قبل الموعد بخمس دقائق ."لكن الابتسامة سرعان ما اختفت ليعقب بخيبة : "وهذا يعني أنني متأخر بخمس دقائق."!

أدخل المفتاح في القفل ببطء شديد، محاولًا لف الدورة دون أن تصدر تلك الطقطقة المعدنية التي تستطيع لمياء رصدها حتى لو كانت نائمة في آخر الشقة؛ إذ كان مقتنعاً أن زوجته لا تمتلك أذنين بشريتين، بل راداراً عسكرياً يرصد أي حركة مشبوهة داخل دائرة نصف قطرها خمسون متراً!

انفتح الباب، فرفع حذاءه عن الأرض قبل أن يخطو، كمن يدخل متحفاً لا منزلًا. أغلق الباب بهدوء وحبس أنفاسه، فلم يجد صوتاً. ابتسم مجدداً واستبشر : "الحمد لله ."..لكن قبل أن تكتمل الجملة في رأسه، جاءه الصوت القادم من المطبخ حاداً ومجلجلًا: يـــونـــس!

تجمد في مكانه فوراً. كان هناك شيء مجرّد في الطريقة التي تنطق بها اسمه، يجعل الحروف الثلاثة تبدو كأمر استدعاء رسمي من النيابة العامة. أجاب بصوت خافت متلعثم :

ـ نعم؟

ـ تعال!

لم تقل "لو سمحت"، ولم تضف "إذا انتهيت"، ولم تحتاج حتى لرفع نبرتها؛ فقد كانت تمتلك موهبة نادرة تجعل كلمة واحدة منها كفيلة بإلغاء حرية الإنسان! دخل المطبخ، فوجدها تقف أمام الغاز، تقلب الطعام بيد وتمسك هاتفها باليد الأخرى، دون أن تكلف نفسها عناء النظر إليه. قالت وهي تواصل التحديق في الشاشة :

ـ كم الساعة؟

نظر إلى ساعته بتوتر :

ـ السابعة إلا ..

فقاطعته بقسوة :

ـ لا أسألك عن ساعتك، أسألك عن الساعة التي قلت إنك ستعود فيها؟

صمت قليلًا ثم قال بحذر شديد:

ـ السادسة وخمسون دقيقة ..

ـ إذن تأخرت !

ـ خمس دقائق فقط يا لمياء..

وضعت الملعقة على الرخام ببطء شديد، ثم التفتت إليه بكامل جسدها وقالت :

ـ في الزواج يا يونس، لا يوجد شيء اسمه "خمس دقائق فقط!"

كان يعرف هذه النبرة جيداً؛ إنها النبرة التي تعلن بدء المحاضرة، وأن أي محاولة للدفاع عن النفس ستضيف بنداً جديداً إلى لائحة الاتهام. رفع الكيس الورقي أمامها كمن يقدم رشوة مالية لقاضٍ صارم :

ـ أحضرتُ لكِ الكرواسون الذي تحبينه..

نظرت إلى الكيس، ثم إلى وجهه، ثم عادت للكيس مرة أخرى وتساءلت :

ـ طلبت منك خبزاً !

ـ لم يكن موجوداً ..

ـ والكرواسون كان موجوداً؟

ـ نعم ..

ـ طبعاً!

صمتت للحظة، ثم أطلقت الجملة التي كان يخشاها أكثر من أي شيء في حياته :

ـ لو كانت أمك حيّة لما رجعت بهذا الكيس!

تنهد في داخله بحسرة. رحم الله أمه، فمنذ سنوات وهي تحت التراب، وما زالت تشارك في كل شجار زوجي يندلع في هذا البيت! كان يونس يعتقد أن الموت ينهي حضور الإنسان، لكن والدته أثبتت أن بعض الأمهات يحصلن بعد الوفاة على عقد عمل دائم داخل ضمير أبنائهن!

قبل زواجه بأشهر قليلة، أمسكت أمه بيده وربتت عليها بحزم الأمهات اللواتي يعرفن مصلحة أبنائهن أكثر منهم، وقالت له : " تزوّج مبكراً يا يونس، لتنجب ولداً وتكبران معاً. لا يهمّ يا ماما أن تكون تحبها الآن"

نظر إليها باستغراب، فأكملت بثقة الأنبياء:

"الحب في العائلات المحافظة يأتي بعد الزواج، لا قبله".

سألها حينها" :وإذا لم يأتِ؟"،

فاهتز رأسها بيقين: "سيأتي."!

ثمانية عشر عاماً.. ولم يأتِ! كان الحب بالنسبة ليونس يشبه حافلة أعلنت البلدية عن خط سيرها، وعلقت جدول مواعيدها، وانتظرها الناس سنوات طويلة، ثم اكتشفوا لاحقاً أن الشركة أفلست قبل أن تشتري الحافلة أصلًا!

أعادته لمياء إلى الواقع متسائلة :

ـ لماذا تبتسم؟

انتبه إلى أنه كان شارداً، فقال بسرعة :

ـ لا شيء ..

ـ هل تضحك عليّ؟

ـ أبداً !

ـ إذن لماذا تبتسم؟

كان يعرف أن الإجابة الحقيقية مستحيلة، فقال أول شيء خطر بباله :

ـ تذكرت إعلاناً سمعته في الراديو .

رمقته بنظرة طويلة وقالت بنبرة تهكمية :

ـ واضح.. حتى إعلانات الراديو أصبحت أهم مني!

حملت الكيس، أخرجت قطعة كرواسون، وقضمت منها قطعة صغيرة ثم أعادتها بإهمال إلى الورق :

ـ باردا!

أغلق يونس عينيه بقلة حيلة. في داخله، كان يتمنى لو أن شركات التأمين تؤمّن على الأزواج ضد النقاشات المنزلية! فهو يعمل منذ خمسة عشر

عاماً في شركة تأمين، واكتشف أن الشركة تؤمن على السيارات، والمنازل، والمصانع، وحتى على الأبقار في بعض المناطق الزراعية، لكن لا أحد في هذا العالم وجد شركة تجرؤ على إصدار بوليصة ضد الزوجة الغاضبة.. ولو وُجدت، لكانت أغلى وثيقة في التاريخ!

كان مبنى شركة التأمين يشبه موظفيه تماماً؛ رمادياً، قليل الكلام، ويعيش منذ سنوات على أجهزة التنفس الاصطناعي. وفي الطابق الرابع، جلس يونس خلف مكتبه الخشبي القديم يحدق في شاشة الحاسوب التي تعرض جدولًا لا ينتهي من أسماء العملاء، وكأنها قائمة انتظار طويلة لأناس يتمنون ألا يحدث لهم شيء، ويدفعون المال كل شهر تحسباً لحدوثه! أحياناً كان يتساءل إن كانت شركات التأمين تبيع الطمأنينة حقاً أم تبيع الخوف في علبة أنيقة؟

فالخوف، حين يتكرر كل يوم في الساعة نفسها، يكفّ عن كونه خوفاً، ويصبح مجرد جدول عمل.

دخل مدير القسم، سالم، بخطوات عسكرية؛ رجل يملك موهبة خارقة في جعل الهواء نفسه يشعر بالتقصير! صفق بكفيه مرة واحدة وقال دون أن يلقي تحية الصباح التي يراها هدراً للإنتاجية :

ـ اجتماع!

وقف الموظفون حول الطاولة الصغيرة، وبدأ سالم حديثه أثقل من العادة :

ـ نتائج هذا الشهر مخيبة !

ثم أشار إلى أحد الموظفين :

ـ أنت.. بعت ثلاث وثائق فقط !

ثم التفت لآخر :

ـ وأنت.. أربع !

ثم حطت عيناه على يونس وقال بنبرة ساخرة :

ـ أما أنت يا أستاذ يونس.. فأنت ما زلت تعتقد أنك تعمل في جمعية خيرية !

رفع يونس رأسه بهدوء :

ـ لم أفهم؟

ـ تفهم الآن!

رفع سالم أحد الملفات وتابع :

ـ هذا العميل جاء ليؤمن على سيارته.. لماذا نصحته أن يقرأ العقد جيداً قبل التوقيع؟

ساد الصمت، فنظر يونس إليه باستغراب :

ـ لأن.. هذا حقه !

ضحك سالم ضحكة قصيرة باردة، والتفت إلى بقية الموظفين :

ـ هل سمعتم؟ "حقه"! نحن لا نبيع كتباً يا أستاذ يونس.. نحن نبيع عقوداً. إذا قرأ العميل العقد فلن يوقع، وإذا لم يوقع فلن نقبض، وإذا لم نقبض فلن نأخذ رواتبنا. إذن.. القراءة ضد مصلحة الشركة!

دوّن يونس هذه الجملة في ذهنه: "القراءة ضد مصلحة الشركة". لو قالها أحد في برنامجه الإذاعي لظن المستمعون أنها مبالغة ساخرة، لكنها خرجت الآن من فم المدير بكل جدية!

عاد إلى مكتبه، وفتح حاسوبه ليتلقى إشعاراً جديداً: تم إيداع الراتب .ابتسم، لكن الابتسامة اختفت بعد ثانيتين مع توالي الرسائل المتلاحقة: اقتطاع قسط السيارة.. اقتطاع قرض السكن.. فاتورة الكهرباء.. فاتورة الهاتف.. تحويل تلقائي إلى حساب لمياء.. ظل الهاتف يهتز حتى شعر أنه يشارك في جنازة حسابه البنكي! فتح التطبيق ونظر إلى الرصيد المتبقي؛ كان يشبه آخر ناجٍ من غرق سفينة! وبعد أقل من دقيقة، وصلته رسالة من لمياء: "اشترِ منظفاً للحمام."

نظر إلى الرصيد مرة أخرى، ثم كتب لها: "حاضر ."

حذفها، وكتب: "أكيد ."

ثم حذفها أيضاً، واكتفى بإرسال "إبهام مرفوع"؛ فقد اكتشف منذ سنوات أن الإبهام المرفوع هو أرخص وسيلة لتجنب الشجار.. لا يعد بشيء، ولا يعترض على شيء، ولا يقول شيئاً أصلًا!

عند الظهيرة، خرج مع زميله جلال لتناول الغداء في مطعم شعبي صغير. كان جلال من الرجال الذين يشتكون من زوجاتهم طوال الوقت، ثم

يشترون لهن الهدايا في طريق العودة! قال جلال وهو يغمس قطعة خبز في الحمص :

ـ زوجتي تريد السفر هذا الصيف .

ـ جيد !

ـ جيد؟.. أتعرف كم تكلف الرحلة؟

ـ لا .

ـ وأنا أيضاً لا أعرف.. لأنني توقفت عن الحساب عندما تجاوزت المبالغ قدرتي على الإغماء!

ضحك يونس، فسأله جلال :

ـ وأنت؟ كيف حال لمياء؟

أخذ يونس نفساً عميقاً ثم قال :

ـ بخير .

نظر إليه جلال باستغراب وقال :

ـ مستحيل! كل زوج يقول "بخير" بهذه النبرة يكون في خطر محدق!

ابتسم يونس دون أن يجيب؛ فقد تعلم أن الحديث عن حياته الزوجية يشبه فتح نافذة في غواصة.. في البداية يدخل قليل من الماء، ثم تغرق السفينة كلها!

في الساعة الثالثة عصراً، خرج من الشركة. كان يستطيع العودة إلى المنزل، لكنه وقف أمام سيارته دقائق طويلة قبل أن يغلق الباب ويقول لنفسه: "سأزور أبي أولًا."

كان منزل والده يقع في حي قديم هادئ، ما زالت شرفاته تحتفظ بأصص الريحان التي ماتت منذ سنوات ولم يجرؤ أحد على رميها. فتح الباب بمفتاحه، فوجد والده جالساً أمام تلفاز مغلق يتابعه باهتمام شديد!

ـ مساء الخير يا أبي.

رفع الرجل رأسه ونظر إليه طويلًا، ثم قال باعتذار طفولي :

ـ تفضل.. من حضرتك؟

لم يعد السؤال يؤلم يونس كما كان في البداية، بل أصبح جزءاً من الطقوس اليومية. اقترب منه وقبّل رأسه :

ـ أنا يونس.. ابنك

ظل الرجل يفكر، ثم قال:

ـ سامحني.. الاسم مألوف، لكن الوجوه أصبحت تتشابه.. ظننتك في البداية حرامي!

جلس يونس بجانبه، وبعد دقائق من الصمت، وقعت عينا العجوز على الصورة الكبيرة المعلقة على الجدار؛ صورة زوجته الراحلة. تغير وجهه فجأة، واعتدل في جلسته مخفضاً صوته تلقائياً، ثم همس بوعي مذعور :

ـ هل.. ما زالت زلفى في البيت؟

نظر يونس إلى الصورة ثم إلى أبيه وقال مبتسماً :

ـ لا يا أبي.. أمي توفيت منذ سنوات.

ظل الرجل ينظر إلى الصورة بخوف، ثم اقترب من يونس وهمس كما لو كان يكشف سراً عسكرياً :

ـ لا تقل لها إنني لم آكل الخضار!

انفجر يونس ضاحكاً لأول مرة منذ الصباح، ضحك حتى اغرورقت عيناه، وللمفارقة، لم يكن يعرف إن كان يضحك على أبيه، أم على الحقيقة التي اكتشفها فجأة: لقد نسي الرجل اسم ابنه، ونسي منزله، ونسي عمره.. لكن الخوف من زوجته ظل أقوى من مرض الزهايمر نفسه! وفي تلك اللحظة، شعر يونس بشيء غريب.. ربما ورث عن أبيه أكثر مما كان يظن!

غادر يونس منزل والده مع اقتراب الغروب. وقبل أن يغلق الباب، سمع صوت أبو يونس يناديه من الداخل :

ـ يا.. يا ..

التفت يونس مبتسماً، وفي كل مرة كان ينتظر أن يتذكر والده اسمه. ظل الرجل يحدق فيه لثوانٍ، ثم قال بحماس طفل وجد الحل أخيراً :

ـ يا ابني !

اقترب منه العجوز بخطوات بطيئة، ووضع يده على كتفه ثم قال بصوت منخفض :

ـ إذا مرت زلفى.. قل لها إنني نائم!

أغلق يونس عينيه للحظة، ثم أجابه: "حاضر".. وأغلق الباب خلفه.

كان الطريق إلى الإذاعة يمر بالقرب من المدرسة التي يدرس فيها زياد. نظر إلى بوابتها من بعيد، وخفف سرعته دون أن يدري؛ ربما لأنه تذكر فجأة ذلك اليوم الذي كبر فيه ابنه.. وخرج هو منه أصغر مما كان.

كان زياد في الثانية عشرة من عمره عندما دخل غرفته يحمل ورقة مطوية بعناية كأنها وثيقة سرية. وقف أمام أبيه متردداً :

ـ بابا.. ممكن توقّع هنا؟

أخذ يونس الورقة؛ كانت نتيجة امتحان الفيزياء.. راسب!.. رفع رأسه نحو ابنه، وكان الصبي يحاول أن يبدو شجاعاً رغم ارتجاف أصابعه :

ـ إذا عرفت ماما.. ستقتلني !

ابتسم يونس ابتسامة مطمئنة وربت على كتفه :

ـ لا تخف.. أنا سأحل الموضوع.

في تلك اللحظة، نظر إليه زياد كما ينظر الأطفال إلى الأبطال الخارقين؛ نظرة امتلأت بالثقة، وهي ذات النظرة التي لم يرها يونس بعدها أبداً. وقّع الورقة ووضعها في جيبه، وظل طوال النهار يردد في نفسه: "لن أخبر لمياء". كان مقتنعاً بذلك، تماماً كما يقتنع المدخن كل ليلة أن سيجارة الغد ستكون الأخيرة!

في المساء، بينما كانت لمياء ترتب المائدة، سألت فجأة :

ـ كيف كانت نتائج زياد؟ أجاب يونس بسرعة :

ـ أظن أنها جيدة!

رفعت رأسها نحوه وابتسمت ابتسامة هادئة، كانت عندها أخطر من الصراخ :

ـ متأكد؟..

سقطت الشوكة من يد يونس، ولم يكن يعرف ماذا يقول، وشعر أن قلبه بدأ يفاوضه على الاستقالة! وفي النهاية استسلم.. أخرج الورقة من جيبه وقال بصوت خافت: "رسب بالفيزياء". وقبل أن يكمل جملته، كانت لمياء تنادي بصوت زلزل البيت: "زيـــاد."!

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد بينهما ما يُقال. كبر زياد، لكن المسافة بينه وبين أبيه كبرت أسرع منه.

واليوم، يغلق زياد باب غرفته على نفسه، هارباً من هذا الواقع، ليعيش في عالمه الخاص. وعلى حائط غرفته، يحتل بوستر عملاق مساحة بارزة للفنانة "سوسو"؛ نجمة الفن الهابط التي تصدرت أغنيتها المبتذلة "لأ يا ماما أنا عندي كرامة "قوائم الأكثر استماعاً بين المراهقين. كان زياد معجباً أعمى بها، يرى فيها السحر والأنوثة، بينما يستمع عبر سماعاته لصوت والده الصادر من الراديو في غرفة مجاورة وهو ينصح الآباء بـ "بناء جسور الثقة مع الأبناء"! كانت الكوميديا السوداء تجري في هذا البيت كالهواء: يونس يوزع الطمأنينة والمواعظ بالمجان على الملايين، بينما لا يملك منها غراماً واحداً لنفسه ولا لابنه.

أخطر أنواع الكذب ليس الذي نقوله للآخرين، بل الذي نكرره أمام المرآة حتى يصدّقه صاحبه قبل أن يصدّقه أحد.

في الطابق السابع من مبنى الإذاعة، كانت الحركة تشبه خلية نحل؛ مذيعون يجرون بين المكاتب، ومعدون يحملون الملفات. أما يونس، فكلما اقترب من باب الأستوديو، شعر أن شخصيته الأخرى بدأت تستيقظ.. الشخصية التي لا تعرفها لمياء، ولا يعرفها مدير شركة التأمين، ولا حتى زياد!

فتح باب غرفة البث، فابتسمت له موظفة الاستقبال: "مساء الخير أستاذ يونس". ابتسم تلقائياً ابتسامة خفيفة وصادقة، وقالت له معدة البرنامج: "الليلة لدينا مداخلات هاتفية كثيرة، واضح أن موضوع التسامح بين الزوجين يثير ضجة كبيرة."

أومأ برأسه وجلس أمام مكتبه حيث كانت ورقة الإعداد تنتظره. قرأ العناوين: كيف نحتوي شريك الحياة.. فن الاستماع.. الكلمة الطيبة داخل الأسرة.. ابتسم بسخرية وتساءل في سره: "من يكتب هذه الفقرات؟".. ثم تذكر أنه هو من كتبها! أخرج قلماً ورسم خطاً تحت عبارة: "الزواج هو الميناء الأكثر أمناً في حياة الإنسان". ظل ينظر إليها طويلًا، ولم يعرف لماذا شعر فجأة بأنها أطرف جملة قرأها في حياته!

دخل مهندس الصوت مقاطعاً: "تبقّت دقيقتان". أومأ يونس برأسه، ارتدى السماعات، واقترب من الميكروفون مع إضاءة المصباح الأحمر: ON AIR

في الخارج، كان آلاف المستمعين يستعدون لسماع الرجل الذي يعيد السلام إلى بيوتهم كل ليلة. وفي الداخل، كان يونس يحدق في انعكاس

وجهه على زجاج الأستوديو، ولأول مرة منذ سنوات لم يتعرف إلى الرجل الجالس أمامه! شعر بأن شيئاً ما انكسر في داخله، أو ربما كان مكسوراً منذ زمن وقرر أخيراً أن يتوقف عن التظاهر بأنه سليم. أخذ نفساً عميقاً، واقترب أكثر من الميكروفون وفتح فمه.. وهنا، كان كل شيء على وشك أن يبدأ!

فبين الصمت والصراخ مسافة يقطعها الإنسان مرة واحدة في العمر، حين يكفّ أخيراً عن خشية النتيجة.

الفصل الثاني

البرنامج الليلي

ON AIR

داخل الاستوديو، لم يكن هناك من ضوء سوى ذلك المصباح الأحمر الصغير المعلّق فوق الميكروفون، يومض كقلبٍ نصف ميت. وقف يونس في مكانه، تفصله عن الجملة الأولى ثانيتان لا أكثر، وشعر أن كل الأصوات في العالم قد خفتت دفعة واحدة: صوت لمياء، صوت مديره سالم، صوت أمه الراحلة، حتى صوته الخاص الذي كان يستعيره كل مساء ليقنع الناس بأنه سعيد. لم يبقَ في رأسه سوى فكرة واحدة صغيرة وقاتلة: لماذا يخاف بعد اليوم من أي شيء؟ ابتسم ابتسامة لم يرها أحد، أخذ نفساً طويلًا كأنه يستنشق الهواء لآخر مرة، واقترب من الميكروفون.

ـ مساء الخير.. حلقة جديدة من برنامج "سكينة" تنطلق الآن..

ساد صمت قصير على الأثير، كأن الهواء نفسه احتبس داخل جهاز الإرسال. أزاح يونس أوراق الإعداد المرتبة بعناية على طاولة الاستديو جانباً بحركة واحدة، ثم تابع بصوت قاطع لم يعرفه المستمعون من قبل، ولن ينسوه بعد اليوم:

ـ في هذه الحلقة لن أتحدث عن السكينة، ولا عن الحياة الزوجية المثالية كما أفعل كل ليلة، ولا عن العلاقات الأسرية التي تنبض بالمثاليات المزيّفة.. سأتحدث الليلة عن الحقيقة. أجل، كل الحقيقة، ومن دون فقرات إعلانية هذه المرة! في بلد، التأمين فيه على الإنسان اختياري، والتأمين على السيارة إجباري. سأبدأ بقصة رجل، لنسمّه "فلان"، رجلٌ

يعمل كالحمار في شركة تأمين معروفة، ومهمته اليومية الوحيدة في هذه الشركة هي الكذب! نعم يا سادة، الكذب على الناس وإيهامهم بأمور لا تتحقق، ومن المستحيل أن تتحقق، فقط ليُرضي مديره سالم! وسالم هذا شخص نصّاب، يعشق القرش ويفضّله على أبنائه وأفراد أسرته، سجلّه مليء بقضايا الفساد، وتاريخه أسود كالقطران!... ربما تتساءلون الآن: لماذا هذا "الفلان" مطأطئ الرأس، موافق على العمل مع سالم الزفت هذا؟ والجواب المذهل هو: ليُرضي لمياء! وما أدراكم يا سادة من تكون لمياء؟! لمياء هي لعنة حياته.. في الأوراق الرسمية، هي زوجته منذ ثمانية عشر عاماً، وفي الواقع، هي الكارثة المتربعة على عرش إمبراطورية من التسلط والسيطرة! ولأول مرة في حياته، سيعترف "فلان" بأنه متزوج من "هولاكو" – كما يسمّيها في سرّه، ولم يجرؤ يوماً على الاعتراف بذلك لأحد! – وقبل أن أخبركم ماذا يعمل أيضاً ليُرضي زوجته، ويقدّم لها كل فلس يملكه في بداية كل شهر، يسعدني أن أكشف لكم عن هوية "فلان"..

في غرفة التحكم، تجمّد مهندس الصوت في مكانه. تحوّل المخرج الإذاعي إلى تمثال من الشمع، ويده معلّقة في الهواء فوق لوحة المفاتيح كأنها نسيت كيف تتحرك. أما معدّة البرنامج، فقد فتحت فمها من الدهشة كأنها رأت عفريتاً خلف زجاج الاستديو، ثم – من دون أن تدري بالضبط لماذا – أخرجت هاتفها المحمول وبدأت تصوّر يونس عبر الزجاج، وهي تهمس لنفسها: "لن يصدّق أحد هذا إن لم أثبّته!". لم تكن تعلم أن تلك اللقطة الصغيرة ستنتشر بعد ساعات كالنار في الهشيم، وأن العالم كله سيتعرّف على يونس بشكل لم يخطر له على بال.

واصل يونس كلامه دون أن يرمش، وبابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتيه:

ـ "فلان" هذا.. هو نفسه المذيع الحمار الذي يتحدث إليكم الآن خلف الميكروفون! يونس، صاحب الصوت الدافئ الذي يوزّع عليكم النصائح والوصايا كل مساء! وليس هذا فحسب، بل حان الوقت لتكتشفوا مهزلة هذه الإذاعة برمّتها! هذه المحطة التي يديرها صاحبها بأجندات مشبوهة، رجل يبتزّ أكبر رجال الأعمال في البلد، يحتفظ بأدلة تُدينهم: صوراً وفيديوهات فاضحة، وأوراقاً كارثية، ليدفعهم إلى الإعلان في محطته التافهة التي تبث هذا البرنامج السخيف! وإن كنتم تتساءلون لماذا كانت إعلانات مكياجٍ رخيص، وحبوب تخسيس مزيّفة، تُقاطع حلقاتي كل ليلة، فالجواب بسيط: لأن أصحابها من عملاء صاحب القناة المفضّلين، ولأن هذا البرنامج، سيداتي وسادتي، لم يكن يوماً عن "السكينة"، بل عن كم دولار يمكن أن يجنيه صوتي الدافئ من جيوبكم!

ارتفع صراخ المخرج خلف الزجاج العازل وهو يقرع الزجاج بكلتا يديه بلا هوادة، بينما أخذ هاتف الاستوديو الداخلي يرن بهستيريا متواصلة، وانضم إليه رنين هاتف يونس الشخصي في جيبه، وكأن كل أجهزة الاتصال في المبنى قد اتفقت على معاقبته دفعة واحدة. لكن يونس أغلق عينيه واسترسل، كمن يلقي بآخر قنبلة في معركته الأخيرة:

ـ والآن.. لديّ بعض الرسائل التوضيحية: أولًا، لمديري العزيز سالم: أنا مستقيل من بؤرة الكذب والفساد التي تسمّيها شركة التأمين! ثانياً، لزوجتي المحترمة لمياء، التي لم أحبّها يوماً واحداً في حياتي: أنتِ طالق! وبالثلاث، على الهواء المباشر، أمام آلاف المستمعين! وثالثاً، لصاحب هذه القناة النجسة: لا يشرّفني بعد اليوم أن أقدّم برنامجي الكاذب على أثيركم الملوّث!

فجأة، انقطع البث!

كان صاحب القناة قد ضرب مقسّم الهاتف بيده، وصرخ في المخرج هاتفاً بشتائم لا توصف، آمراً بقطع الإرسال فوراً وتحويل الأثير إلى بث أغانٍ وطنية متواصلة – الحل الوحيد الذي يعرفه أصحاب المحطات حين تنهار السماء فوق رؤوسهم فجأة.

في الاستوديو، خيّم صمت مريب. رفع يونس سمّاعات الرأس ببطء، وضعها على الطاولة بجانب الميكروفون، واستقام في وقفته كمن أنهى للتو مهمة كان يخشاها طويلًا. لم يكد يخطو خطوتين خارج باب غرفة البث حتى هجم عليه اثنان من رجال الأمن القساة، فأمسكا بذراعيه وسحلاه عبر الممرات، وسط ذهول الموظفين والمذيعين العالقين في صدمتهم، وبعضهم – كما فعلت معدّة البرنامج قبل قليل – لم يفوّت الفرصة ليصوّر المشهد بهاتفه. رموه خارج المبنى بقسوة، فتدحرج على درجات السلّم الحجري، وصفقت البوابة الحديدية الضخمة خلفه بإحكام، كأنها تختم نهاية فصلٍ كامل من حياته.

وقف يونس، نفض الغبار عن بنطاله، وعدّل ياقة قميصه التي غزتها التجعّدات. وفي تلك اللحظة بالذات، تحت ضوء مصابيح الشارع الخافتة، أخذ نفساً عميقاً وأطلق زفير راحة لم يشعر بمثله منذ ثمانية عشر عاماً! شعر بكاهله يخفّ كأنما جرّد نفسه من جبل من الصخر، وضحك وحيداً في الشارع الخالي ضحكة قصيرة، متسائلًا بينه وبين نفسه: كيف لم يفعل هذا من قبل؟ ثم تذكّر الجواب بسرعة: لأنه، حتى قبل ساعة واحدة فقط، كان لا يزال يخاف من كل شيء. أما الآن، فلا شيء يستطيع أن يخيفه أكثر مما يخيفه بالفعل.

اتجه نحو سيارته، فتح الباب وجلس خلف المقود. كان يعرف يقيناً أنه لا يملك مكاناً يذهب إليه الليلة؛ فالعودة إلى منزله الزوجي أصبحت في حكم

الانتحار المباشر، إذ إن لمياء ستكون في انتظاره بساطور أو أداة حادة، بعد الوليمة الإذاعية الفاضحة التي أقامها لها على الهواء. اتخذ قراره فوراً: سيتوجه إلى منزل والده ليبيت هناك.. أو بالأحرى، ليكمل حياته هناك.

أدار المحرك، وأثناء قطعه الشوارع المظلمة، أخرج هاتفه وطلب رقم ابنه زياد.

في الشقة الأخرى، كان زياد يقف في منتصف الصالة كالمشدوه، بجانبه أمه لمياء التي كانت ترغي وتزبد، تقذف الوسائد من الأريكة يمنة ويسرة وهي تصرخ على الهاتف في محاولات لا تنتهي للوصول إلى إدارة الإذاعة، ثم تتصل بمحاميها، ثم بأختها، ثم بمحاميها مرة أخرى، وكأنها تحفظ عن ظهر قلب مسرحية غضب متكاملة الفصول. عندما اهتزّ هاتف زياد ورأى اسم "بابا"، أخذ نفساً وخرج إلى الشرفة بعيداً عن زلزال أمه، وردّ بصوت ترتجف فيه الصدمة:

ـ نعم؟..

قال يونس بصوت حنون محمّل بالإرهاق:

ـ زياد.. حبيبي، أريد أن أراك الآن.

ساد صمت ثقيل عبر الخط. كانت الصدمة متجذّرة في نفس المراهق؛ إذ كيف لهذا الرجل الجبان، الموظف الذي كان يهرب من ظلّ زوجته طوال سبعة عشر عاماً، أن يتناول الميكروفون ويُفجّر العالم بهذه الطريقة السريالية؟! ظلّ زياد يبحث في ذاكرته عن أب يعرفه، فلم يجد سوى غريب بصوت مألوف.

ردّ زياد بصوتٍ يشوبه ارتباك قاسٍ:

ـ أراك؟ هذا جنون! هل تعرف ماذا فعلت للتو؟! أمي تصرخ بهيستيريا في الصالة، والبيت يحترق! لا أريد رؤيتك!

وقبل أن يجيبه يونس، أغلق زياد الخط بوجهه.

سقطت المكالمة كصفعة ناعمة على وجه يونس. رغم كل ذلك الشعور بالتحرّر الذي اجتاحه بعد الحلقة الكارثية، إلا أن رفض ابنه له نكأ جرحاً غائراً في قلبه. أوقف السيارة على جانب الطريق، وظلّ يحدّق في شاشة الهاتف الداكنة بألم، يقلّب اسم "زياد" بين أصابعه كأنه يقلّب ندماً لا شكل له.

لم يكن أمامه سوى خيار آخر. فتح تطبيق الواتساب، وضغط على زر التسجيل الصوتي ليرسل لزياد رسالة خاصة. تكلّم بنبرة هادئة، مكسورة، لكنها تنبض بصدقٍ بالغ:

"زياد حبيبي.. أتفهّم رفضك لرؤيتي، وأعترف لك أنني لم أكن يوماً ذلك الأب الذي رسمته في خيالك، وأنني خيّبت آمالك كثيراً.. ولكن، حتى المحكوم بالإعدام يحصل على فرصة تحقيق طلب أخير قبل رحيله. وأنا لا أطلب سوى أن أراك.. أرجوك أن توافق، لتسمعني فقط، وأنا متأكد أنك بعد أن تسمعني، ستغيّر موقفك تماماً."

ضغط زر الإرسال.

في غرفته، استمع زياد إلى الرسالة الصوتية وهو مستلقٍ على سريره، بينما كان صوت تحطّم بعض الأواني الزجاجية يتردّد من المطبخ، حيث كانت لمياء تصبّ غضبها على كل ما يقع تحت يدها. لم تلامس كلمات

يونس قلب زياد بتلك العاطفة المرجوة، ولم تمحُ سنوات الضعف والوشاية القديمة، لكنها أشعلت في داخله فتيل فضول هائل وشرس. ماذا يملك هذا الرجل ليقوله بعد تلك المحرقة الإذاعية؟ وما السرّ الذي يجعله يطلب فرصة أخيرة، كأنه يودّع الحياة فعلًا؟

أعاد تشغيل الرسالة الصوتية مرتين أخريين، متوقّفاً عند جملة "المحكوم بالإعدام"، يحاول أن يفهم إن كانت مجرد استعارة أدبية اقتبسها أبوه من إحدى حلقاته القديمة، أم أنها شيء آخر تماماً. ارتدى زياد جاكيته بسرعة، تسلّل من الباب الخلفي للشقة دون أن تنتبه له أمه الثائرة، ونزل إلى الشارع. أوقف سيارة أجرة مارّة، وقال للسائق بنبرة حازمة:

ـ إلى الحي القديم.. بيت جدّي.

وصل يونس إلى منزل والده قبل زياد بدقائق قليلة. فتح الباب بمفتاحه المعتاد، فوجد أبو يونس مستلقياً على الأريكة، غارقاً في نوم عميق، والتلفاز المغلق يواصل "بثّه الصامت" أمامه كصديق وفيّ لا يتعبه الحديث. جلس يونس بجانبه بهدوء، ينظر إلى وجه والده النائم، ويتذكّر كيف كان هذا الرجل نفسه، منذ سنوات، قبل أن يسرقه الزهايمر، يجلس في نفس المكان يستمع إلى نشرة الأخبار المسائية بجدّية موظف حكومي متقاعد. لمس كتفه بلطف، فانتبه العجوز فجأة، وفتح عينيه بذعر طفل استيقظ من كابوس:

ـ من أنت؟ ماذا تفعل في بيتي؟!

ابتسم يونس بحنان، معتاداً على هذا السؤال أكثر من أي جملة أخرى في حياته:

ـ أنا ابنك يونس يا أبي.. جئت لأمكث هنا الليلة.

هدأ العجوز فجأة، وتفحّصه بعينين ضيّقتين، ثم سأله بجدية من يحسب نفسه محقّقاً بارعاً:

ـ حسناً.. وهل أخبرت "زلفى" أنك ستنام هنا؟ لأنها لا تحب الضيوف بعد الساعة التاسعة.

ضحك يونس ضحكة متعبة، وقبّل رأس والده:

ـ لا تقلق يا أبي.. أمي لن تعترض الليلة.

جلس الاثنان في صمت مريح، أحدهما لا يتذكّر شيئاً، والآخر يريد أن ينسى كل شيء. وبعد دقائق، سُمع صوت طرقٍ خفيف على الباب الخارجي. نظر يونس إلى ساعته، ثم إلى الباب، وقال في سرّه: "لقد أتى". قام ليفتح الباب، وهو لا يعرف بعد أن الليلة التي بدأت بصرخة على الأثير، لن تنتهي إلا باعتراف أثقل من أي صرخة.

الفصل الثالث

الورقة المطوية

B 620246

فتح يونس الباب، فوصلت إليه رائحة ليلة من ليالي منزله الزوجي، مع نفحة باردة لطمت وجهه الساخن. كان زياد يقف على العتبة، يده غارقة في جيب جاكيته، وكتفاه مشدودتان نحو الأعلى كأنه يحاول درء صفعة متوقعة. لم تكن في عينيه نبرة عداء حاد، بل خشونة ولد حائر أُلقي به فجأة في منتصف مشهد لا يعرف النص الخاص به.

وقفا لثوانٍ في صمتٍ ثقيل، يتبادلان نظرة طويلة، يفتّشان في ملامح بعضهما البعض عن بقايا الأب والابن اللذين كاناهما قبل ساعات فقط.

ـ ادخل يا زياد.. الهواء بارد بالخارج.

دخل زياد شقة جدّه، التي لم يدخلها منذ زمن تجنّباً لملاحظات والدته، بخطوات حذرة، مسح بصره أركان الصالة القديمة: السجادة التبريزية المتهالكة التي أكل الدهر أطرافها، الصورة القادمة من زمن الأبيض والأسود لجدّته "زلفى" وهي تبتسم برزانة الخمسينيات، وجدّه المتقاعد المستلقي على الأريكة، والذي رفع رأسه مجدداً ورمق القادم الجديد بنظرة متوجّسة، قبل أن يعود ويُغلق عينيه، كأنه قرّر إقصاء العالم برمّته من مفكرته الليلة.

جلس زياد على طرف المقعد الخشبي المنجّد بقماش مخملي قديم، وظلّ ممسكاً بهاتفه الذي لم يتوقف عن الاهتزاز. خمّن يونس فوراً أن الرسائل والروابط والصور ومقاطع الفيديو، القادمة من زملائه في

المدرسة ومن منصّات التواصل الاجتماعي، قد بدأت تُطوّق الولد من كل جهة، وأن حلقته الليلة صارت أشهر بكثير من أي حلقة سبقتها في تاريخ البرنامج.

جلس يونس قبالته على كرسي منخفض، وضع يديه على ركبتيه، وشعر لأول مرة بقسوة المسافة بينهما.

ـ هل.. هل أكلت شيئاً حبيبي؟ أستطيع أن أعدّ لك بعض..

قاطعه زياد بنبرة حادة كالشفرة:

ـ لا أريد شيئاً يا بابا. لا أريد طعاماً، ولا نصائح إذاعية عن الدفء الأسري! أنا هنا لأنك أرسلت لي تسجيلًا صوتياً تتحدث فيه عن "المحكوم بالإعدام". أردت أن أعرف فقط.. هل جُننت رسمياً؟ أم أن هذه فقرة جديدة من استعراضك الإذاعي القادم؟

ابتسم يونس ابتسامة باهتة، ابتسامة رجل أفرغ جهازه العصبي من آليات الدفاع المتراكمة عبر عقود:

ـ حقّك يا زياد.. حقّك أن تقطّعني إلى أجزاء صغيرة بكلماتك. أن تشعر أن هذا الذي يجلس أمامك مجنون، أو أناني، أو أحمق قرّر أن يحرق الشجرة التي تُظلّه وتظلّكم لمجرد أنه شعر بالحرّ!

ـ أنت لم تحرق الشجرة فحسب يا بابا! أنت أحرقت الشارع كلّه!

قال زياد بصوت خفيض ومرتعد، وهو يميل بنصفه الأعلى نحو والده:

ـ هل تعرف ماذا يحدث في بيتنا الآن؟ أمي تجلس على الأرض وسط المطبخ، بعد أن كسرت كل طبق زجاجي طالته يدها، وهي تُقسم بدمي ودمك أنها ستسلخ جلدك بالقضايا والمحاكم! المحامي اتصل، وخالي اتصل، والأصدقاء أيضاً، وغداً ستعجّ المدرسة بالمجموعات الرقمية التي تتداول المقطع! كيف هان عليك أن تفعل بنا هذا؟ كيف هان عليك أن تجعلنا أضحوكة البلد كلّه؟!

طأطأ يونس رأسه، ينظر إلى أصابعه المتيبّسة. كانت نبرة زياد تجرحه، لكنها لم تكن تفاجئه؛ فهذا هو الثمن الحتمي لممارسة صراحة مباغتة بعد عقدين كاملين من الصمت المسموم.

ـ لم تكن أنت الأضحوكة يا بني.. أنا الذي كنت الأضحوكة طوال ثمانية عشر عاماً، وكنت الوحيد في المدينة الذي لم يكتشف ذلك حتى الليلة.

ـ وما الذي تغيّر الليلة بالذات؟

سأله زياد بنبرة تسودها السخرية والمرارة:

ـ ما الذي نزل عليك فجأة بين السابعة والثامنة مساءً، لتستفيق وتكتشف أنك "بطل قومي" يصرخ بالحقيقة؟ هل أفاقت كرامتك فجأة بعد كل هذه السنين؟

رفع يونس عينيه إلى عيني ابنه، وحطّت فيهما نظرة من النور المكسور، خالية من أدنى ادّعاء للبطولة:

ـ لم تُفق كرامتي يا زياد.. ولم أتصوّر لثانية واحدة أنني بطل. الأبطال في الأفلام يصرخون بالحقيقة لأنهم يملكون شجاعة فائقة، أما أنا، فقد صرخت بها لأنني لم أعد أملك ما أخسره. هذا ليس بطولة يا بني، هذا

حساب رياضي بسيط: صفر مطروحاً منه صفر يساوي صفراً، ولا خوف يمكن أن يزيد الناتج.

توقف يونس لحظة، ونظر نحو والده الذي غلبه النوم في الناحية الأخرى من الغرفة، ثم أكمل بصوت حادّ ومكتوم:

ـ الصمت يا زياد، رفاهية يحظى بها من يملكون غداً ينتظرهم. من يعتقدون أن لديهم سنوات طويلة مقبلة ليعدّلوا فيها أخطاءهم، أو ليتحمّلوا فيها الإهانة في سبيل غاية أبعد. لكن حين يُمحى "غد" واحد فقط من القائمة، تصبح كل كذبة زائدة عن حاجتك.

تأمّل زياد وجه أبيه ملياً. كان شحوب يونس غير طبيعي، وكان الهزال يغلّف عنقه تحت الياقة بوضوح لم يلاحظه من قبل، في زحمة المشاحنات المنزلية اليومية. ساد صمت قطعه صوت الجدّ العجوز وهو يتمتم في نومه بجملة غير مفهومة، ثم يحوّل وجهه إلى الجهة الأخرى، غير معنيّ بما يجري من دراما في صالته.

ـ ماذا تقصد بـ "يُمحى غد"؟

سأل زياد بصوت انخفض رغماً عنه، وقد بدأ الجدار الصلب لموقفه يتشقّق تحت وطأة الريبة.

تنفّس يونس ببطء، ومدّ يده نحو جيب جاكيته الداخلي. لأقل من ثانية، تردّد؛ كان يعرف أن إخراج هذه الورقة سيغيّر جغرافية هذا البيت إلى الأبد، وسيضع نقطة نهاية لا رجعة فيها لقصة الأب الضعيف الصامت. أخرج ظرفاً أبيض مطوياً بعناية، وضعه على الطاولة الخشبية الصغيرة بينهما، ودفعه بسبّابته نحو زياد.

ـ ما هذا؟

سأل زياد وهو يحدّق في الظرف كأنه طرد مفخّخ.

ـ هذه هي الحقيقة الوحيدة التي لم أجرؤ أن أصرح بها على الهواء الليلة يا زياد.لم أذعها لأن ملايين الغرباء لا يستحقونها.. هي ملكك أنت وحدك.

تردّد زياد، ثم مدّ يده المرتجفة وأخذ الظرف. فتح الورقة المطوية، وكانت ترويسة المختبر الطبي البارزة تصنع ظلًا خفيفاً تحت الضوء الأصفر الخافت للغرفة. قرأ المصطلحات اللاتينية المعقّدة، ثم تجاوزها بسرعة ليتوقف عند النتيجة النهائية المكتوبة بالعربية أسفل التقرير: "ورم خبيث في المراحل المتقدمة.. لا يستجيب للعلاج الجراحي.. تقرير التقييم النهائي".

انكمشت أوراق التقرير بين أصابع زياد. سقطت عيناه على التاريخ المدوّن أعلى الصفحة: كان يعود إلى اليوم نفسه.

رفع زياد رأسه ببطء شديد، وكان التعبير على وجهه قد تحوّل كليّاً؛ اختفت السخرية، وجفّ الغضب المشتعل، ولم يبقَ سوى ذعر طفل صغير يستوعب فجأة أن العالم كذبة كبيرة.

ـ هذا.. هذا تقرير ليس لك أنت.. صح؟

ـ بل لي أنا يا بني.

قال يونس بصوت هادئ جداً، هدوء البحيرة التي سكنت بعد العاصفة:

ـ والمهلة التقريبية التي منحني إياها جسدي هي عشرة أيام فقط.. ربما أقل. أظن أنني أول رجل في التاريخ يتأخر عن موعد نهائي كل حياته، ثم يلتزم بموعد نهائي واحد بدقة مطلقة.

قاطع زياد بصوت متقطّع كأنه يغرق:

ـ وأمي؟.. هل تعرف؟

هزّ يونس رأسه نفياً:

ـ لم أخبر أحداً. لم أرد أن أقضي ما تبقّى لي من أيام وأنا أرى في عينَي لمياء ذلك المزيج القاتل من الشماتة والاستعلاء، أو أن أتحوّل إلى مشروع عطف وشفقة يتصدّر مجالسها. ولم أرد أن أقضيها في شركة التأمين، وأنا أبيع الناس "طمأنينة مصطنعة" عن مستقبل لا وجود له من الأساس، بينما مستقبلي أنا شخصياً محسوب بالأيام لا بالسنين!

مسح يونس وجهه بكفّيه، ثم واصل، وعيناه تتطلعان إلى ابنه برغبة محمومة في الشرح:

ـ طوال ثمانية عشر عاماً يا زياد، كنت أستيقظ كل صباح وأرتدي قناع الأب المطيع، والموظف المثالي، والمذيع الدافئ الذي يوزّع السكينة وهو يعتصر من الداخل. كنت أتحمّل إهانات سالم، وتسلّط لمياء، واحتقارك الضمني لي، لأنني كنت أقول لنفسي: "تحمّل يا يونس، لتؤمّن مصاريف زياد، لتشتري له بيتاً، ولئلا يدفع هو ثمن ضعفك". لكنني حين مسكت هذا التقرير بعد ظهر هذا اليوم، استيقظت على حقيقة مرعبة: أنا لم أكن أحميك يا بني.. أنا كنت أستسلم فقط، وأعلّمك - بصمتي - كيف تتكيّف مع الهوان.

وقف زياد فجأة، كأن الكرسي أصبح يغلي تحته. مشى خطوات مضطربة في الصالة الصغيرة، ثم توقّف عند النافذة التي تطلّ على الأزقّة المظلمة. كانت يداه ترتجفان بشكل ملحوظ.

ـ ولهذا.. لهذا جئت إلى هنا؟ ولهذا فجّرت كل شيء الليلة؟

ـ فجّرت كل شيء لأنني أردت أن أخلع عني ذلك الجلد الميت قبل أن أُدفن فيه.

قال يونس واقفاً هو الآخر، وخطا نحو ابنه ووقف خلفه بمسافة قصيرة:

ـ أردت أن أترك لك شيئاً واحداً حقيقياً يخصّني يا زياد. لم أستطع أن أترك لك أرصدة ضخمة في البنوك، ولا قصوراً، ولا اسماً رنّاناً. لكنني رفضت أن أترك لك زيفاً! أردتك أن تتذكّر، حتى لو كرهتني الليلة، أن أباك في يومه الأخير كسر القفص، وقال للجلّادين إنهم جلّادون، واختار أن يموت وهو يملك حنجرته على الأقل.

التفت زياد نحو والده. كانت الدموع قد تجمّعت في عينيه، لكنه رفض أن يدعها تسقط. نظر إلى هذا الرجل الذي كان يراه طوال عمره كائناً هامشياً بلا ملامح ولا موقف، فرآه الليلة مجرّداً من كل الحمايات، يواجه موته وفضيحته وعار استقالته وطلاقه بصدر عارٍ تماماً.

سأل زياد بنبرة كسيرة:

ـ ولماذا لم تقل لي فور استلامك التقرير؟.. لماذا تركتني أصرخ بوجهك على الهاتف قبل ساعة؟ لماذا تركتني أظن أنك بعت المتبقي من عائلتنا في نوبة جنون؟

ـ لأنك لم تكن لتميّز الصدق لو ألقيته عليك وأنت غارق في زيف الشقة هناك يا زياد. كان يجب أن تسقط العمارة المجهّزة بالكذب أوّلًا، لكي نلتقي على الأنقاض.. كأبٍ وابنه، لا كشخصين يمثّلان دور الأب والابن.

في تلك اللحظة، استيقظ أبو يونس مرة أخرى. اعتدل في جلسته، تفحّص الاثنين بعينين غائبتين، ثم قال بصوت مبحوح ومستغرب:

ـ جاري حليم؟ هل هذا أنت؟ ومن هذا الفتى الشاب الذي يقف معك؟ هل هو موظف توصيل الطلبات؟

نظر يونس إلى والده، ثم نظر إلى زياد، وابتسم ابتسامة مليئة بالحزن والرحمة. أخذ خطوة نحو زياد، ومدّ يده، ووضعها على كتف ابنه لأول مرة منذ سنوات دون أن يرتجف أو يتردّد.

ـ لا يا أبي، هذا أنا يونس.. وهذا ليس موظفاً. هذا زياد.. ابني ووحيدي وحبيبي.

تأمّل العجوز الوجهين لثوانٍ، ثم هزّ رأسه كمن يحاول تجميع قطع أحجية مفقودة:

ـ زياد؟.. نعم.. نعم، طبعاً أذكره وأذكرك، أتظنني رجلًا مصاباً بالخرف؟

ضحك يونس ضحكة قصيرة، مكسورة في منتصفها، وجلس على حافة الأريكة قرب والده. أمسك يده العجوز بكلتا يديه، وقال بصوت خفيض لم يقصد أن يسمعه زياد:

ـ سامحني يا أبي.. على كل زيارة أجّلتها بحجة العمل، وعلى كل مكالمة قطعتها لأن لمياء كانت تنتظر، وعلى أنني تركتك تنسى وحدك في هذا البيت، بينما كنت أنا أيضاً أنسى، عن قصد، أنني ابنك.

حدّق فيه أبو يونس بصمت طويل، وللحظة بدا وكأن شيئاً ما، خيطاً رفيعاً من الذاكرة القديمة، قد اهتزّ خلف عينيه. ثم ربّت على يد يونس بحنان، وقال بجدّية طفولية أفسدت المشهد كله بشكل رائع:

ـ لا بأس يا بني.. لكن في المرة القادمة، أحضر معك "كعكة كنافة" أو "حلاوة الجبن" حين تزور والدك. أنا لا أطلب الكثير.

ابتلع يونس ضحكة ودمعة في آنٍ واحد، وأدرك أن هذا، على الأرجح، أقرب ما سيحصل عليه من غفران في الأيام العشرة المتبقية له.

اقترب زياد ببطء، وجلس على الأرضية الخشبية الممتدة تحت قدمَي جدّه، وأسند رأسه لثوانٍ على ركبة أبيه الواقف بجانبه. لم يقل شيئاً، ولم يعتذر، لكن القبّة الحديدية التي كانت تفصل بينهما تهاوت كليّاً في تلك الزاوية المظلمة من البيت القديم.

أخرج يونس هاتفه من جيبه. كانت شاشته تضخّ عشرات الإشعارات والرسائل والمكالمات التي لم تتوقف، وعنوان أحد المقاطع المتداولة يقفز أمام عينيه: "مذيع سكينة يفقد صوابه على الهواء - شاهد قبل الحذف". ابتسم يونس ابتسامة عابرة، فكّر أن يردّ بتعليق ساخر، ثم غيّر رأيه، ونظر إليها ببرود تام، وأطفأ الجهاز كليّاً، ووضعه على الطاولة بجانب تقرير المختبر الطبي، وكأنه يطفئ آخر ضوء متبقٍّ من حياته القديمة.

خيّم السكون على الصالة، سكون ثقيل وواضح، لم يكن شبيهاً بتلك "السكينة" الزائفة التي كان يونس يذيعها كل مساء عبر الميكروفون مقابل راتب لا يكفي لإرضاء زوجة ولا لشراء كرامة. كان هذا سكينة أخرى، حقيقية هذه المرة: سكينة رجل لم يعد لديه ما يخفيه، ولا ما يهرب منه بعد الآن.. ولا حتى الوقت.

الفصل الرابع

ملاحظات على حياة عادية

لم يُغلق أيّ منهما جفناً في تلك الليلة. كانت ساعات الفجر الأولى تتسرّب ببطء من خلال ستائر الصالة القديمة، فتنساب على أرضها كخيوط رمادية باهتة، فيما ظلّ الحيّ غارقاً في برودته العميقة وسكونه الثقيل. خيّم على البيت صمتٌ مهيب، لكنه لم يكن الصمت الذي اعتاداه طوال سنوات التباعد؛ كان صمتاً دافئاً، صمت رجلين أنهكتهما الحرب حتى تعبا من حمل السلاح، فوضعاه أخيراً جانباً وجلسا يتأملان الخراب الذي تركته المعارك بينهما.

أمضى يونس وزياد الليل بطوله يستعيدان ثمانية عشر عاماً من الغياب المتراكم. لم تكن جلسة اعتراف عابرة، ولا محاضرة أب يوزّع وصاياه الأخيرة كما تخيّل يونس في البداية، بل كانت أشبه بجرد حساب طويل ومؤلم، يُخرج فيه كلّ منهما من ذاكرة الآخر ما سقط سهواً بين السنوات: أول كلمة نطقها زياد ولم يسمعها والده لأنه كان في نوبة عمل مسائية، والمباراة المدرسية التي فاز بها الفتى وصفّق له الجار بحماس الأب الغائب، وليلة رسوبه في الفيزياء حين انتظر عاصفة من التوبيخ فلم يجد سوى صمتٍ أثقل من أي عقاب.

وفي منتصف تلك المحاسبة الطويلة، مال يونس نحو ابنه وخفض صوته أكثر كي لا يوقظ الجدّ المستغرق في نومٍ متقطّع على الأريكة المجاورة:

ـ أتعرف لماذا لم أوبّخك على رسوبك في الفيزياء يا زياد؟

هزّ زياد رأسه نفياً، فأكمل يونس بصوت متعب خرج كأنه اعتراف مؤجَّل منذ سنوات:

ـ لأنني كنت واقفاً في تلك الليلة، أهمّ بأن أسألك عمّا حدث، فسمعت صوت أمك تقول لك إن أباك "فاشل مثل جدّك، ولن يفهم شيئاً عن المستقبل". وبدل أن أتدخّل لأدافع عنك، وعن نفسي، تراجعت. تسمّرت كجبان، وتركتك تظن أن صمتي إهمال، بينما كان في الحقيقة هزيمة كاملة أمام امرأة كنت أخشى كلمة واحدة منها.

ابتلع زياد ريقه ولم يجد ما يقوله. كانت تلك الليلة البعيدة، التي ظنّها قد ذابت في النسيان، لا تزال حيّة في ذاكرة أبيه بكلّ ذلك الوجع:

ـ لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

رفع يونس عينيه إليه وابتسم ابتسامة صغيرة أنهكها الحزن:

ـ لأن الرجل الذي كنته حتى أمس لم يكن يملك الشجاعة ليعترف حتى بخوفه، فكيف يعترف بهزائمه؟ اسمعني جيداً يا زياد: لا تجعل الخوف هو من يتّخذ قراراتك. كل مرّة سكتُّ فيها كي أتجنّب مشكلة، كنت أعود فأجد أنني صنعت مشكلتين. الخوف لا يحمينا من العواصف، بل يعلّم ظهورنا الانحناء حتى ننسى شكل الوقوف. ومن ينحني طويلًا، ينسى في النهاية أنه وُلد واقفاً.

سكت لحظة، ثم أضاف بنبرة أشدّ، كأنه ينتزع الكلمات من مكان عميق ومؤلم في صدره:

ـ وعِدني بشيء واحد فقط: لا تتزوّج يوماً لأن أمّك، أو أي أمّ أخرى، طلبت منك ذلك، ولا لأن العائلة تنتظر، ولا لأنك خفت أن تكون الاستثناء

بينهم. أنا فعلتها يا بني؛ تزوّجت لأن أمي، رحمها الله، قالت لي إن الحب يأتي بعد الزواج لا قبله. انتظرت هذا الحب ثمانية عشر عاماً، فلم يأتِ أبداً، ووصلني بدلًا منه أنت. وأنت أجمل شيء حدث لي في حياتي، لكنني لا أريدك أن تراهن على قرار مصيري بهذه الطريقة العمياء. أعطِ قلبك فرصة أن يختار قبل أن تعطيه لأحد.

لم يقل زياد شيئاً. جلس صامتاً، يبتلع الكلمات ببطء، كأنها نقوش تُحفر على حجر رطب داخل قلبه. ولأول مرة منذ سنوات، رأى أباه إنساناً كاملًا؛ لا ذلك الموظف المطيع الذي يهرب من ظلّ زوجته، بل رجلًا يقف عارياً أمام موته وخوفه وهزائمه، ويحاول بيدين مرتجفتين أن يرمّم ما هدمته السنوات.

وعندما انتصف الليل وغلب النعاس جفون زياد المنهكة، تمدّد الفتى على الأريكة المجاورة لجدّه واستسلم لنوم ثقيل. بقي يونس يتأمله طويلًا؛ كانت ملامحه في النوم تعود إلى طفولته الأولى، إلى ذلك الصبي الذي كان ينام على صدره في ليالٍ بعيدة قبل أن تتكاثر بينهما الجدران. مدّ يده، سحب بطانية صوفية قديمة، وغطّاه بها بحذر كمن يخشى أن يوقظ هشاشة اللحظة.

ثم تسلّل بخطوات خفيفة إلى الشرفة المطلة على الأزقّة المظلمة. لفحته البرودة كأنها شظايا صغيرة من زجاج، فأغلق ياقة جاكيته حول عنقه وأخرج من جيبه علبة سجائر اشتراها في طريقه إلى بيت والده. طوال عمره كان يهرب من التدخين خوفاً على صحته وشيخوخته، لكن أيّ شيخوخة تنتظر رجلًا تقف حياته على حافة عشرة أيام فقط؟ أشعل سيجارة، واستنشق الدخان بعمق، تاركاً مرارته تحترق في صدره ببطء غريب أقرب إلى الراحة.

أخرج هاتفه. تردّد لحظة قصيرة، ثم ضغط زر التشغيل.

ما إن أضاءت الشاشة حتى انفجر الهاتف في يده بسيل متواصل من الاهتزازات والتنبيهات، حتى خُيّل إليه أن الجهاز يرتجف من الحمى. أرقام تتلاحق، ورسائل تتكدّس، وإشعارات تتزاحم فوق بعضها حتى كادت تخفي خلفية الشاشة.

حدّق مذهولًا: مئة وأربعة وستون اتصالًا لم يُجب عنها، وثلاثة وثمانون رسالة نصية وتطبيقية، وأكثر من ألف ومئة إشعار من وسائل التواصل الاجتماعي.

وقبل أن يستوعب حجم الفوضى، رنّ الهاتف مجدداً. كان المتصل مديره في شركة التأمين، سالم. تجاهل المكالمة، لكن الرنين عاد فوراً من مخرج برنامجه الإذاعي، ثم من رقم صحفي معروف، ثم من أصدقاء قدامى وجيران وموظفين في الإذاعة وشركة التأمين لم يتحدث معهم منذ سنوات. بدا العالم كلّه كأنه استيقظ دفعة واحدة يبحث عن "المذيع الذي فجّر حياته على الهواء".

شعر بدوار خفيف، فألقى بقايا سيجارته إلى الشارع وأغلق الهاتف بسرعة، فعاد الصمت يهبط على الشرفة كستارة ثقيلة.

ظلّ واقفاً عند السور الحديدي لحظة طويلة، ثم انطلقت من صدره ضحكة عالية مفاجئة شقّت سكون الحيّ النائم. لم تكن ضحكة سخرية، بل فرحة خام، طفولية، لم يذقها منذ زمن بعيد؛ فرحة رجل استعاد ابنه في ليلة واحدة بعد أن ظنّ أنه فقده إلى الأبد. ضحك حتى دمعت عيناه، وربّت على صدره كمن يطمئن قلباً لا يصدّق أنه ما زال قادراً على هذا القدر من الخفّة.

لكن الفرح لا يقيم طويلًا في حياة رجل يحمل تاريخ انتهاء واضحاً. ما لبثت موجة التحرّر أن انحسرت، ليصعد مكانها خوف آخر أشدّ قسوة من المرض نفسه: كيف سيترك هذا الولد وحيداً؟ وأيّ ميراث سيخلّفه له؟ فالفرح، حين يعرف موعد رحيله بالضبط، يتحوّل إلى ضيف مسرع الخطى.

لم يكن يملك عقاراً، ولا حساباً بنكياً يُعتدّ به، ولا سيارة حديثة، ولا حتى بيتاً يخصّه؛ فهذه الشقة إيجار قديم سيستردّها صاحبها بعد وفاة أبي يونس.

سيموت قريباً، ويترك لابنه اسماً ارتبط للتوّ بفضيحة مدوّية، وأمّاً ينهشها الغضب، ومستقبلًا جامعياً يحتاج إلى مال لا وجود له. شعر أن هذه الأفكار تعصر قلبه ببطء، كأن السرطان بدأ يقتله قبل موعده الرسمي.

بقي متكئاً على السور يراقب خيوط الفجر الأولى وهي تتسلّل بين أسطح الحيّ القديم، وهناك، وسط ذلك الضوء الباهت، بدأت فكرة غامضة تتشكّل في رأسه؛ فكرة لم تتضح ملامحها بعد، لكنها كانت كافية لتمنحه سبباً واحداً ليستيقظ من أجله.

في الصباح الباكر، استيقظ زياد على رائحة الشاي المغلي. خرج من الغرفة فوجد والده يجلس في الصالة يناول جدّه كوباً دافئاً بصبر أب يطعم طفلًا. كان يونس شاحباً لأنه لم ينم إلا ساعة واحدة، لكن ملامحه حملت هدوءاً غريباً، هدوء رجل حسم أمراً داخله ولم يعد راغباً في مناقشته.

اقترب من ابنه، ووضع يده على كتفه:

ـ زياد حبيبي، أريدك أن تعود اليوم إلى منزل أمك، وتمكث عندها هذه الليلة.

تجمّد زياد ونظر إليه بدهشة:

ـ أعود إلى أمي وأتركك في هذه الظروف؟ لماذا يا بابا؟

أجاب يونس بهدوء يحمل رجاءً ومسؤولية معاً:

ـ أمك، في النهاية، أمك يا بني. لها حق عليك، وهي تمرّ بظروف صعبة وتحتاج إلى وجودك بجانبها. ثم إن لديّ مشواراً خاصاً اليوم، وأريد أن أكون فيه وحدي.

تأمّل زياد وجه أبيه بشكّ واضح:

ـ إلى أين ستذهب؟ وماذا تنوي أن تفعل؟

ابتسم يونس ابتسامة خفيفة لم تكشف شيئاً:

ـ أعدك أن أخبرك بكل شيء عندما نلتقي مجدداً. الآن اذهب وجهّز نفسك، وإياك أن تعود إلى هنا قبل أن أتصل بك.

بعد أن دخل يونس الحمّام، استغلّ زياد صوت الماء المتدفق. اقترب من الطاولة حيث وُضع هاتف والده، وشغّله بأصابع متوترة. أدخل الرمز السرّي، ونزّل تطبيق تتبّع جغرافي وربطه بهاتفه الشخصي، ثم أخفى أيقونته وأعاد الهاتف إلى مكانه بدقة.

لم يكن ما فعله بدافع الفضول، بل بدافع ذعر صامت من أن ينهار أبوه وحيداً في ذلك "المشوار الخاص".

خرج يونس من الحمّام، وعانق ابنه عناقاً طويلًا دافئاً، حتى شعر زياد بأن في ذلك العناق شيئاً يشبه الوداع أكثر مما يشبه فراق يوم واحد.

غادر زياد بيت جدّه وهو يحدّق في هاتفه، حيث بدأت نقطة زرقاء صغيرة تلمع على الخريطة بجانب عبارة: "يونس - متصل الآن".

وصل إلى شقة أمه بحذرٍ شديد، يدفع الباب الخشبي ببطء كأنه يدخل ساحة جريمة لم تُجفَّف دماؤها بعد. بدا المنزل كأنه خرج للتو من زلزالٍ وهوجاء لم تهدأ ارتداداتهما المتوحشة؛ أطباق صينيّة مكسورة تنتشر شظاياها الدقيقة على أرضية المطبخ والرخام، ووثائق رسمية وأوراق محاكم مبعثرة على طاولة الصالة كأنها أوراق شجرٍ جافة أطاحت بها عاصفة. وفي المنتصف، كانت هناك صور زفافهما القديمة قد هُشّمت براقع زجاجها بالكامل، وتناثرت أجزاؤها كأنها محاولة يائسة لمحو أي أثرٍ لوجه يونس من ذاكرة البيت.

ولم تتوقف الفوضى عند هذا الحد؛ إحدى الكنبات المنجّدة كانت مقلوبة على جانبها بوضعٍ سريالي، بينما تناثرت قطعٌ من ملابس يونس وقُمصانه الرسمية، وقد قُطّعت أقمشتها بحنقٍ وبأداة حادة، لتتحول إلى مزقٍ خالية من الروح ملقاة على السجادة.

وسط هذه المحرقة المنزلية، كانت لمياء تجلس على ما تبقى من الأريكة الرئيسية. بدا وجهها كأنه خسر كل مساحيقه وجبروته الظاهري؛ عينان غائرتان تحيطهما هالاتٌ سوداء كلسعة جمرة من السهر المسموم والغضب المكتوم، وشعرٌ منفلت ومشعث لم يعهده زياد عليها من قبل، وهي التي كانت تتأنق بصرامة طاووسية أمام الجميع كل صباح. كانت تجلس بانحناءةٍ مكسورة، تنقر بأظافرها المتعرجة على ذراع الأريكة بآلية مرعبة، وتتنفس بصوتٍ مسموع كأنها ناجية عادت للتو من الغرق.

ما إن رأته حتى نهضت مسرعة وأمسكت بكتفيه:

ـ زياد! أين كنت؟ هل كنت مع ذلك المجنون؟ هل رأيته؟ ماذا قال لك؟

جلس قبالتها ولاحظ للمرة الأولى الارتجاف الخفيف في يديها، ذلك الارتجاف الذي لا يشبه المرأة التي كانت تدير البيت بقبضة من حديد.

صرخت وهي تمسح وجهها بكفيها:

ـ أنتم جميعاً تظنون أنني القاسية، وأنني «هولاكو» كما سمّاني والدك أمام البلد كلها! لكن هل تعرف لماذا كنتُ هكذا؟

توقفت، وانسكبت من عينيها دموعُ غضبٍ قديم:

ـ أنا لستُ وحشاً بلا مبرر، أنا صرتُ ذلك الكائن الصارم المليء بالحب والحرص والغضب، لأنه كان يتهرّب من مسؤولياته! المنزل كان بحاجة إلى قبطان، وعندما اختار يونس أن يكون مجرد راكب سلبي، اضطررتُ أن أستلم الدفّة، وتحوّلتُ مع الوقت إلى طاغية - كما يزعم - كوسيلةٍ لتأمين هذا البيت وحمايته.. وهذا يعني أنه هو من صنع سجنه بيده.. والدك يا زياد كان ضعيفاً إلى حدٍّ قاتل، يهرب من كل مواجهة، ويُشبه والده الذي أضاع شبابه بلا طموح. كنتُ أخاف.. أخاف طوال ثمانية عشر عاماً أن ينهار كل شيء فوق رؤوسنا، وأن نجد أنفسنا في الشارع لأن والدك لا يستطيع أن يقول «لا» لأحد، ولا يتحمّل مسؤولية عائلة.. فهل يكون جزائي بعد كل هذا أن يطلّقني على الهواء مباشرة، وكأنني شيطان؟!

نظر زياد إلى أمّه، ولأول مرة شعر نحوها بشفقة حقيقية. أدرك فجأة أن الخوف كان الحاكم الفعلي لهذا البيت منذ البداية؛ خوف أمّه صنع منها سلطة قاسية، وخوف أبيه صنع منه صمتاً واستسلاماً، وكلاهما كان يخوض الحرب نفسها من خندقين متقابلين، ويظن أن الآخر هو العدو.

وهذا، على الأرجح، أقصر تعريفٍ للبيوت التي تتفكك: عدوّان يتقاسمان سقفاً واحداً، يجهل كل منهما أنه يقاتل انعكاس صورته.

فتح فمه وكاد يصرخ بالحقيقة التي تحرق صدره: "أبي لم يكن ضعيفاً الليلة.. أبي يصارع السرطان، أبي يموت يا أمي!"

لكن صوت يونس الخافت من الليلة الماضية عاد يرنّ في أذنه، وهو يستحلفه ألا يذكر المرض لأحد، وخصوصاً للمياء، كي لا يقضي أيامه الأخيرة بين نظرات الشفقة والشماتة.

أطبق زياد شفتيه بقوة، واكتفى بأن يقول:

ـ أمي، أرجوكِ.. كفّي عن الصراخ. الأمر انتهى.

تركها واتجه إلى غرفته، وأغلق الباب خلفه حاملًا في صدره سرّاً أثقل من أن يحمله فتى في السابعة عشرة وحده.

وفي الوقت نفسه، في بيت الجدّ بالحيّ القديم، كان يونس يقف في غرفته القديمة أمام خزانة الملابس الخشبية. أخرج حقيبة ظهر سوداء متوسطة الحجم وبدأ يجمع فيها بعض الأشياء بعناية وتكتّم. فتح الدرج السرّي أسفل الخزانة، ذلك الدرج الذي خبّأ فيه سنوات طويلة أوراقاً وصوراً وأشياء ظنّ يوماً أنها قد تنفعه ثم نسيها. أخرج منها ما يحتاجه لمشواره الغامض، ثم توقّف لحظة قبل أن يضيف صورة قديمة مطوية قصّها من مجلة لامرأة يعرفها الجميع باسم واحد: "سوسو".

أغلق سحّاب الحقيبة، ورفعها إلى كتفه بحركة رجل اتخذ قراراً لا رجعة فيه.

مشى بهدوء إلى الصالة حيث كان والده يجلس محدقاً في الفراغ. انحنى يونس، وطبع قبلة طويلة على رأسه المكسوّ بالشيب، ثم همس في أذنه:

ـ أستودعك الله يا أبي.. انتبه لنفسك.

نظر إليه أبو يونس بعينين غائرتين، وهزّ رأسه من دون أن يفهم إلى أين يذهب ابنه، ثم عاد إلى تأمل الفراغ الذي صار يؤنسه أكثر من أي حديث.

خرج يونس من البيت وأغلق الباب خلفه بإحكام. وقف في منتصف الشارع الخالي، وعدّل حزام الحقيبة على كتفه، وأخذ نفساً عميقاً، كمن يتهيأ لدخول معركة لا يعرف أحد تفاصيلها بعد.

وفي الجهة الأخرى من المدينة، اهتزّ هاتف زياد فجأة. فتح الشاشة بسرعة، فرأى النقطة الزرقاء التي تمثّل والده تتحرك على الخريطة، مبتعدة عن الحيّ القديم ومتجهة بخطوات ثابتة نحو أطراف المدينة.. نحو وجهة مجهولة تماماً. إلى أين يمضي يونس بهذه الحقيبة السوداء؟ وما المشوار الذي يصرّ على أن يخوضه وحيداً؟ فالرجال الذين لا يملكون وقتاً كافياً، غالباً ما يختارون السير وحدهم، لا كبراً، بل خوفاً من أن يُثقلوا من يحبّون بوداعٍ لم يكتمل بعد.

الفصل الخامس

كان ينبغي ألا...

كانت الشمس قد ارتفعت قليلًا فوق المدينة، لكن دفؤها لم ينجح في اختراق الزجاج الأزرق للمباني الحديثة التي انعكس عليها الضوء بارداً، كأنه صادر عن مستشفى لا عن صباح جديد. خرج يونس من بيت والده بخطوات هادئة، تتناقض مع العاصفة التي تعصف داخله، وكانت الحقيبة السوداء تتدلّى من كتفه بثقلٍ يفوق وزنها الحقيقي؛ لم تكن تحمل الأغراض التي فيها فحسب، بل تحمل قراراً لو عاد به الزمن ألف مرة لما تخيّل أنه سيصل يوماً إلى اتخاذه.

وقف لحظة إلى جانب سيارته القديمة، وألقى نظرة طويلة على الحيّ الذي نشأ فيه. البيوت المتلاصقة ما زالت تستيقظ ببطء؛ امرأة تكنس أمام باب منزلها، وبائع كعك يدفع عربته وهو يطلق صفارته المعتادة، ورجل مسنّ يجلس على كرسي بلاستيكي يحتسي فنجان قهوته ويراقب المارّة كما يفعل كل صباح منذ سنوات. بدا كل شيء مألوفاً إلى درجة مؤلمة، وكأن المدينة ترفض أن تعترف بأن حياة أحد سكانها انقلبت رأساً على عقب خلال ليلة واحدة.

فتح باب السيارة، وألقى الحقيبة على المقعد المجاور، ثم جلس خلف المقود من دون أن يدير المحرك مباشرة. بقي ساكناً للحظات، يحدّق عبر الزجاج الأمامي إلى الفراغ، وكأنه يمنح نفسه فرصة أخيرة للتراجع.

مدّ يده إلى داخل الحقيبة، وأخرج قصاصة المجلة. فردها فوق المقود، فظهرت صورة المغنية الاستعراضية الشهيرة "سوسو"، بابتسامتها

اللامعة التي احتلّت أغلفة المجلات وصفحات المواقع الإلكترونية وإعلانات الشوارع. كانت تنظر إلى العدسة بثقة مصطنعة، بينما تتدلّى حول عنقها مجوهرات تكفي قيمتها لعلاج عشرات المرضى الذين يشبهونه.

حدّق يونس في الصورة طويلًا، لا بإعجاب، بل بدقة رجل يستعدّ لدخول امتحان لا يحتمل الخطأ، يحاول أن يحفظ تفاصيل الوجه: شكل العينين، الانحناءة الخفيفة للحاجبين، الشامة الصغيرة قرب الذقن. كان يخشى، بسخرية لم تخلُ من مرارة، أن يخلط بينها وبين أخرى؛ فمنذ سنوات، أصبحت عمليات التجميل قادرة على إنتاج الوجوه كما تنتج المصانع القوالب البلاستيكية؛ أنوف متشابهة، وشفاه متشابهة، وابتسامات متشابهة، حتى بات المرء يحتاج أحياناً إلى قراءة الاسم أسفل الصورة ليعرف من أمامه.

لم يكن يونس قد التقى سوسو من قبل، رغم أنها كانت تزور مبنى الإذاعة باستمرار. كانت تدخل نهاراً وسط جيش من المصوّرين ومديري الأعمال وخبراء التجميل، بينما كان هو يصل مساءً حاملًا كوب القهوة وملفات برنامجه، ليجلس وحيداً خلف الميكروفون حتى منتصف الليل. كانا يتواجدان في المبنى نفسه، لكنهما ينتميان إلى عالمين لا يلتقيان؛ هي تعيش تحت الأضواء، وهو يعيش داخل غرفة معزولة لا يراه فيها أحد.

واليوم، للمرة الأولى، سيستغلّ اسمه الذي بناه خلال سنوات من الهدوء والرصانة. سيطرق بابها لا بوصفه رجلًا يحتضر، ولا موظفاً مثقلًا بالديون، بل بوصفه "المذيع يونس"، الاسم الذي ما زال يفتح بعض الأبواب قبل أن يغلقها الواقع. هو نفسه الذي قضى ثمانية عشر عاماً يبيع الغرباء عبر الأثير "طمأنينة مصطنعة" عن مستقبل آمن، اكتشف

الآن أن هذه الطمأنينة ذاتها - بصوته الدافئ وبطاقته الإذاعية اللامعة - ستكون مفتاحه لارتكاب أعظم حماقة في حياته. فالكذبة الصغيرة التي نتقنها طويلًا، تصبح يوماً الأداة الوحيدة التي نجيدها في أخطر لحظات حياتنا.

أدار المحرك أخيراً، فانطلقت السيارة القديمة بصوتها الخشن المعتاد، واتجهت نحو الحيّ الحديث حيث تقيم النجمة سوسو.

في الجهة الأخرى من المدينة، كان زياد يقف وسط غرفته، تحت صورة سوسو العملاقة، والهاتف بين يديه، وعيناه معلّقتان بالنقطة الزرقاء الصغيرة التي تتحرك ببطء فوق الخريطة الإلكترونية. لم يعد يسمع شيئاً حوله؛ لا صوت المكيّف، ولا هدير السيارات في الخارج، ولا حتى نبضات قلبه التي أخذت تتسارع كلّما ابتعدت النقطة عن بيت الجدّ. كان يراقبها كما يراقب أحدهم جهازاً في غرفة العناية المركزة، يخشى أن يتوقف فجأة.

همس لنفسه: "إلى أين تذهب يا بابا؟ وما هذا المشوار الذي يستحق كل هذا الغموض؟"

حاول أن يقنع نفسه بأن والده ربما ذهب إلى طبيب آخر، أو إلى محامٍ لترتيب بعض الأوراق، أو إلى المصرف.. لكن شيئاً داخله كان يرفض كل تلك الاحتمالات. لقد رأى نظرة يونس قبل ساعات، وكانت تشبه نظرة رجل أنهى حواره مع الدنيا، وبدأ يكتب الفصل الأخير وحده.

وفجأة توقفت النقطة الزرقاء، وثبتت في مكان واحد. كبّر زياد الخريطة بإصبعيه، فظهر اسم الحيّ الراقي الذي توقفت فيه، ثم اسم البرج السكني. عبس باستغراب: "ما الذي يفعله أبي هنا؟" لم يكن يعرف أحداً

في تلك المنطقة؛ حتى المرور فيها كان بالنسبة إلى يونس نوعاً من السياحة المجانية أمام واجهات المحال الفاخرة.

ارتدى جاكيته بسرعة، والتقط مفاتيحه والمحفظة، واتجه نحو الباب. وما إن وضع يده على المقبض حتى جاءه صوت لمياء من خلفه، حاداً كصفعة:

ـ إلى أين يا زياد؟

تجمّد مكانه ببطء، وأغمض عينيه للحظة قصيرة قبل أن يستدير. كانت لمياء تقف عند مدخل المطبخ، ولم تكن تشبه المرأة التي عرفها طوال حياته. وجهها شاحب، وعيناها غائرتان من السهر، وخصلات شعرها مبعثرة حول وجهها في مشهد لم يعتده منها يوماً. حتى ملابسها بدت وكأنها ارتُديت على عجل، من دون اهتمام بالمظهر الذي كانت تحرص عليه دائماً.

تبادل معها النظرات لثوانٍ، ثم قال بثبات مصطنع:

ـ ذاهب إلى المكتبة المركزية.. عندي مراجع أحتاجها للمدرسة.

حدّقت فيه طويلًا، كأنها تبحث عن الكذبة قبل أن تسمعها، ثم رفعت إصبعها نحوه وقالت ببطء، وهي تشدّد على كل كلمة:

ـ إذا علمتُ أنك ذاهب إلى والدك.. فأقسم لك أن عتبة هذا المنزل ستُحرم عليك.

شعر زياد بجفاف مفاجئ في حلقه. كره الكذب، لكن والده علّمه الليلة الماضية شيئاً واحداً: أحياناً لا يكون الصدق شجاعة، بل خيانة لوعد قطعته لمن تحبّ. خفض بصره قليلًا وقال:

ـ اطمئنّي.. ذاهب إلى المكتبة فقط.

ظلّت تحدّق فيه لحظات أخرى، ثم استدارت بصمت، وعادت إلى الصالة التي ما زالت آثار الانهيار تملؤها، تاركة خلفها باباً مفتوحاً ورائحة قهوة باردة لم يقترب منها أحد. انتظر زياد حتى اختفى صوت خطواتها، ثم فتح الباب بسرعة، وانطلق نحو الشارع، بينما كانت عيناه تعودان مرة أخرى إلى النقطة الزرقاء التي تنتظره على شاشة الهاتف، غير مدركٍ أن الساعات المقبلة ستجرّه إلى أكثر أيام حياته جنوناً.

استغرقت السيارة ما يقارب نصف ساعة حتى بلغت الحيّ الحديث، ذلك العالم الذي لم يكن يشبه شيئاً من المدينة التي عاش فيها يونس عمره كله. هنا لا تتدلّى أسلاك الكهرباء فوق الرؤوس، ولا يركض الأطفال خلف كرة مهترئة بين الأزقّة، ولا تجلس النساء أمام الأبواب يتبادلن أخبار الجيران. كل شيء بدا مصقولًا أكثر من اللازم: الأرصفة نظيفة كأن أحداً لا يمشي عليها، والواجهات الزجاجية تعكس الشمس ببريق بارد، والأشجار المزروعة على جانبي الطريق مصطفّة بدقة عسكرية، وكأنها تؤدّي دورها في لوحة إعلانية أكثر من كونها أشجاراً حقيقية.

خفّف يونس سرعته وهو يقترب من البرج السكني، ثم أوقف السيارة في موقف جانبي، وأطفأ المحرك. بقيت يداه على المقود لثوانٍ طويلة، بينما راحت عيناه تتجوّلان في واجهة البرج. لم يكن يخشى تنفيذ خطته بقدر ما كان يخشى اللحظة التي تسبق التنفيذ، تلك اللحظة التي يستطيع الإنسان فيها أن يعود أدراجه لو أراد. فالخطوة الأخيرة قبل الهاوية ليست الأصعب؛ الأصعب هي التي تسبقها بلحظة، حين يكون التراجع ما زال ممكناً.

تنهّد بعمق، ثم قال لنفسه بصوت خافت: "بعد خمس دقائق.. لن يعود هناك طريق للرجوع." فتح الحقيبة السوداء فوق المقعد المجاور، وتأكّد للمرة الأخيرة من محتوياتها.

في تلك الأثناء، كان زياد يندفع خارج البناية التي تقيم فيها والدته، يهبط الدرج درجتين درجتين، بينما لم تغادر عيناه شاشة الهاتف. كانت النقطة الزرقاء ثابتة في مكانها منذ عدة دقائق، الأمر الذي زاد قلقه أكثر مما لو كانت تتحرك. أوقف أول سيارة أجرة لمحها، وفتح الباب الخلفي بسرعة، وقال للسائق وهو يريه عنوان البرج على شاشة الهاتف:

ـ من فضلك.. إلى هنا، بأسرع ما تستطيع.

نظر السائق إلى الشاشة، ثم إلى الفتى الذي بدا عليه الارتباك، وقال مبتسماً بلا أدنى فكرة عن حجم الكارثة التي يقلّها في مقعده الخلفي:

ـ خير إن شاء الله؟

هزّ زياد رأسه دون أن يجيبه، فلم يكن يملك طاقة للكلام. جلس يراقب الطريق بصمت، بينما راحت المباني تتراجع خلف زجاج السيارة، وكل دقيقة تمرّ كانت تبدو له أطول من التي سبقتها.

دخل يونس إلى البهو الرئيسي للبرج، فاستقبلته رائحة العطور الفاخرة ولمعان الأرضية الرخامية التي انعكست عليها الثريّات المعلّقة في السقف. كان المكان هادئاً إلى درجة غريبة، حتى خطواته بدت مرتفعة أكثر مما ينبغي. تقدّم نحو مكتب الاستقبال، فرفع الموظف رأسه مبتسماً ابتسامة مهنية محفوظة:

ـ صباح الخير، أستاذ.

ردّ يونس بثقة لم يكن يشعر بها:

ـ صباح النور.

ألقى الموظف نظرة سريعة على بطاقته الإذاعية، ثم تجاوز يونس المكتب قبل أن يطرح الموظف أي سؤال إضافي. كانت المهنة، للمرة الأولى في حياته، تعمل كجواز مرور بدل أن تكون قيداً.

دخل المصعد، وضغط زر الطابق الأخير. بدأت الأرقام تضيء واحداً تلو الآخر، بينما كان وجهه ينعكس على الجدار المعدني للمصعد. حدّق في صورته طويلًا؛ لم يرَ فيها مجرماً، ولم يرَ بطلًا، بل رأى رجلًا مرهقاً تجاوز الأربعين بقليل، بدأت التجاعيد ترسم خرائطها حول عينيه، وملأت الشعيرات البيضاء أطراف لحيته، بينما بدا الإرهاق مقيماً في ملامحه كأنه جزء من وجهه منذ سنوات.

ابتسم بسخرية مريرة: "حتى من يقومون بهكذا فعل في الأفلام يبدون أكثر وسامة مني". فالمرايا لا تكذب إلا في التفاصيل الصغيرة؛ أما في اللحظات الكبرى، فهي أصدق شاهد نملكه على أنفسنا.

توقّف المصعد بصوت خفيف، فُتح الباب. كان الممرّ المؤدّي إلى الشقة مغطّى بسجّاد سميك ابتلع صوت خطواته، حتى خُيّل إليه أنه يمشي فوق الهواء. توقّف أمام الباب الكبير، وعدّل ياقة قميصه، ثم أخرج بطاقته الإذاعية من جيبه ووضعها في مكان ظاهر، كأنها آخر قطعة من شخصيته القديمة قبل أن يخلعها. أخذ نفساً عميقاً، وضغط زرّ الجرس.

لم ينتظر طويلًا حتى فُتح الباب بهدوء، وظهرت أمامه خادمة أجنبية في منتصف العمر، تنظر إليه باستفهام مهذّب. ابتسم يونس ابتسامته

الإذاعية التي حفظها المستمعون لسنوات، وأخرج البطاقة أمامها قائلًا بنبرة هادئة واثقة:

ـ صباح الخير. أخبري الأستاذة سوسو أن المذيع يونس في انتظارها. لديّ كلمات أغنية جديدة أعتقد أنها ستناسب ألبومها المقبل.

ترددت الخادمة لحظة، ثم طلبت منه الانتظار وأغلقت الباب برفق. بقي يونس واقفاً في الممرّ، يسمع صوت خطواتها تبتعد داخل الشقة، ويشعر بقلبه يخفق بعنف حتى خشي أن يُسمع صوته من خلف الباب. مرّت أقل من دقيقة، لكنها بدت له زمناً كاملًا، قبل أن ينفتح الباب من جديد.

ابتسمت الخادمة هذه المرة وقالت بلغة عربية مكسّرة:

ـ تفضّل.. الأستاذة تنتظرك.

دخل يونس بخطوات متّزنة، بينما كانت عيناه تتجوّلان في الصالون الواسع الذي بدا أقرب إلى صالة عرض منه إلى منزل: ثريّات كريستالية تتدلّى من السقف، ولوحات حديثة تملأ الجدران، وأرائك مذهّبة لم يجرؤ على الجلوس عليها مباشرة قبل أن تشير إليه الخادمة. حتى الهواء داخل المكان كانت له رائحة مختلفة؛ خليط من العطور الباهظة والشموع المعطّرة والزهور الطبيعية.

جلس بهدوء، ووضع الحقيبة السوداء إلى جواره، بينما راحت عيناه تراقبان التفاصيل بعفوية رجل لم يعتد هذا النوع من الرفاهية، وفكّر بمرارة أن ثمن الأريكة الواحدة هنا ربما يكفي لتغطية علاجه لو كان العلاج، أصلًا، يجدي نفعاً.

بعد دقائق، سمع وقع كعبين يقتربان عبر الممرّ الداخلي. رفع رأسه، فظهرت سوسو أخيراً، ترتدي ثوباً حريرياً بلون خمري مثير، وقد بدا واضحاً أنها أنهت استعدادها اليومي قبل وقت قصير؛ مكياج كامل، وشعر مصفّف بعناية، وابتسامة مدروسة تعرف جيداً متى تظهر ومتى تختفي. دخلت الصالون بثقة امرأة اعتادت أن تكون محطّ الأنظار، ومدّت يدها إليه وهي تقول بابتسامة لبقة:

ـ أهلًا وسهلًا أستاذ يونس.. سمعت عن برنامجك كثيراً، لكن يبدو أن هذه أول مرة تجمعنا.

صافحها يونس وهو يبادلها الابتسامة نفسها:

ـ الشرف لي.. وأعتذر لأنني أتيتك من دون موعدٍ مسبق.

جلست قبالته، وضعت ساقاً فوق الأخرى في حركة تلقائية، ثم قالت وهي تشير إلى الحقيبة:

ـ الخادمة تحضّر لنا القهوة. أخبرني.. ما قصة النص الذي تقول إنه سيقلب الألبوم رأساً على عقب؟

ابتسم يونس ابتسامة هادئة، وأجاب بالنبرة الوقورة نفسها التي طالما استخدمها خلف الميكروفون:

ـ أظن أنك لم تُغنّي شيئاً يشبهه من قبل.

جلست سوسو في مكانها وقد ارتسم على وجهها ذلك المزيج المعتاد من الفضول والثقة بالنفس. كانت معتادة على أن يقصدها الشعراء والملحّنون كل أسبوع تقريباً، وكل واحد منهم يحمل "الأغنية التي ستغيّر

تاريخ الفن"، لذلك لم تجد في زيارة يونس ما يثير الريبة، بل على العكس، رأت فيها فرصة لإضافة اسم إعلامي محترم إلى قائمة معارفها، وربما إلى حملة الترويج لألبومها الجديد. ابتسمت وهي تسند ظهرها إلى الأريكة الوثيرة، وقالت بنبرة يغلب عليها المرح:

ـ هذا الكلام يحمّسني.. منذ مدّة لم يصلني نصّ مختلف فعلًا. كل ما يعرضونه عليّ نسخة عن الأغنية السابقة.

ابتسم يونس ابتسامة صغيرة لم تصل إلى عينيه، ثم قال بهدوء:

ـ لهذا السبب جئتُ إليك.

في تلك اللحظة دخلت الخادمة تحمل صينية فضية تتوسّطها فناجين القهوة، ووضعتها برفق على الطاولة الرخامية بينهما قبل أن تنصرف بهدوء. انتظر يونس حتى ابتعد صوت خطواتها، ثم تناول فنجانه من دون أن يشرب منه. كانت يداه ثابتتين على غير المتوقّع، لكن قلبه كان يخفق بقوة حتى خُيّل إليه أن ارتجافه يُسمع في أنحاء الغرفة.

قالت سوسو وهي تلتقط فنجانها:

ـ تفضّل.. أنا متشوّقة لسماع المطلع.

أومأ برأسه، ثم وضع الفنجان على الطاولة، وجذب الحقيبة السوداء نحوه ببطء متعمّد. لم يثر المشهد أي شكّ لديها؛ ظنّت أنه سيخرج دفتراً أو جهازاً لوحياً أو مجموعة أوراق كما يفعل معظم الكتّاب، بل إنها مالت قليلًا إلى الأمام، محاولة أن تسبق عينيها يديه لمعرفة ما سيُخرجه.

أمسك يونس بمقبض السحّاب المعدني، وسحبه ببطء. انفتح جوف الحقيبة تدريجياً، بينما ظلّ هو ينظر إليها لا إلى محتوياتها. ثم أدخل يده إلى الداخل.

ثانية واحدة فقط كانت كافية لتغيّر كل شيء. خرجت يده وهي تمسك مسدساً أسود - لعبة بلاستيكية اشتراها في مراهقته من محلّ ألعاب أطفال قرب بيت والده، بخمسة دولارات لا أكثر، لتصبح فجأة أخطر "سلاح" في تاريخ هذا البرج الفاخر. فالخطر لا يُقاس بما يحمله السلاح من رصاص، بل بما يحمله صاحبه من يأس.

تجمّدت ابتسامة سوسو في مكانها، لكنها لم تشعر بالخطر فوراً. اتّسعت عيناها قليلًا، ثم أطلقت ضحكة قصيرة وهي تشير إلى المسدس:

ـ ما هذا؟ هل هي فكرة دعائية؟ أم أن كلمات الأغنية بوليسية إلى هذه الدرجة؟

لم يُجب. نهض من مكانه بهدوء أربكها أكثر من أي حركة عنيفة، ثم خطا نحوها حتى لم يعد يفصل بينهما سوى خطوات قليلة. عندها فقط رفعت رأسها إليه، ففوجئت بأن الرجل الذي كان يجلس قبل لحظات بصوته الإذاعي الهادئ قد اختفى تماماً؛ لم يبقَ من المذيع الذي اعتاد الناس سماعه ليلًا سوى ملامحه، أما صوته فقد أصبح بارداً، جافاً، خالياً من أي أثر للوداعة.

رفع المسدس البلاستيكي ببطء حتى استقرّت فوهته أمام وجهها مباشرة، وقال بصوت منخفض لا يقبل التأويل:

ـ لا أريد أن أسمع صوتاً واحداً.. أنتِ مخطوفة.

الفصل السادس

من كان هنا؟

في تلك اللحظة، فقط، أدركت سوسو أن الأمر ليس مزحة. شحب وجهها دفعة واحدة كأن الدم انسحب منه نحو مكان آخر، واتّسعت حدقتاها حتى كادتا تخرجان من محجريهما. حاولت أن تصرخ، لكن الهواء انحبس في صدرها، ولم يخرج من حنجرتها سوى صوت مبحوح بالكاد سمعته هي نفسها. تراجعت إلى الخلف تلقائياً حتى التصق ظهرها بالأريكة، بينما راحت يدها ترتجف فوق فمها كأنها تحاول أن تمنع الصرخة من الهرب.

أما يونس، فكان يشعر بأن جسده كله يتحرك بطريقة آلية، وكأن شخصاً آخر يدفعه من الداخل لتنفيذ الخطة التي رسمها عشرات المرّات في ذهنه. لم يعد هناك متّسع للتردّد، لأن التردّد في هذه المرحلة يعني السقوط.

فتح الحقيبة على اتساعها، وللمرة الأولى ظهرت محتوياتها كاملة: قفازات جلدية سوداء، وحبل قنّبي سميك ملفوف بعناية، وشريط لاصق عريض، وسكّين جيب صغيرة، وذلك المسدس البلاستيكي الذي بدا، تحت تأثير الرعب، حقيقياً بما يكفي ليسلب إنسانة قدرتها على التفكير. كانت سوسو تحدّق في الأدوات بعينين مذعورتين، ولم يخطر في بالها للحظة أن السلاح الذي يواجهها ليس سوى لعبة أطفال؛ فالخوف لا يمنح العقل رفاهية التدقيق في التفاصيل، بل يجعله يصدّق أسوأ الاحتمالات فوراً.

قال يونس بنبرة ثابتة، وهو يشير إليها بالمسدس:

ـ انهضي.. بهدوء.

لم تتحرّك؛ كانت قد دخلت في تلك الحالة التي يتجمّد فيها الجسد قبل أن يقرّر الهرب أو المقاومة. كرّر أمره، وهذه المرّة بصوت أكثر صرامة:

ـ قلت لكِ.. انهضي.

ارتجفت ساقاها وهي تحاول الوقوف. كادت تتعثّر بطرف ثوبها الخمري، فمدّ يده وأمسك ذراعها قبل أن تسقط، لا بدافع الرحمة، بل لأن سقوطها سيزيد الأمور تعقيداً. وفي اللحظة التي لامست فيها أصابعه ذراعها، انتفض جسدها بعنف، وبدأت دموعها تنهمر بصمت. همست بصوت متقطّع:

ـ أرجوك.. خذ المال.. خذ كل ما تريد..

أشاح يونس بوجهه عنها للحظة، وكأنه لا يحتمل النظر إلى انهيارها، ثم قال بصوت منخفض:

ـ لو أردت المال الذي في بيتك.. لما جئت إليك.

أشار نحو باب الصالون:

ـ تحرّكي.

خرجت أمامه بخطوات متعثّرة، بينما ظلّ المسدس موجّهاً إلى ظهرها. في تلك اللحظة، خرجت الخادمة من المطبخ تحمل صينية عليها بعض الحلوى، وهي تنادي بلغتها العربية المكسّرة:

ـ مدام..

لكن الكلمة ماتت على شفتيها. توقفت في منتصف الممرّ جامدة كتمثال، ونظرت نحو الصالون فوجدته فارغاً تماماً؛ الفنجانان ما زالا على الطاولة، وأحدهما لم يلمسه أحد، والحقيبة اختفت، وسوسو لم تعد في مكانها، والرجل الذي دخل قبل دقائق تبخّر كأنه لم يكن. وقفت الخادمة مذهولة، تدير رأسها بين الممرّ والغرف، غير قادرة على استيعاب ما حدث خلال ثوانٍ معدودة، بينما كان المصعد في الطرف الآخر من الممرّ يهبط بهدوء نحو الطابق الأرضي، حاملًا معه رجلًا لم يكن قبل ساعات يتخيّل أن حياته ستقوده إلى ارتكاب جريمة، وامرأة لم يخطر في بالها يوماً أن تتحوّل، وهي في بيتها المحصّن، إلى رهينة في وضح النهار.

لم يكن أمام يونس وقت للتفكير في أي خطة بديلة، فكل دقيقة يقضيها داخل ذلك البرج الفاخر كانت تزيد احتمال أن تكتشف الخادمة اختفاء سوسو، أو أن يتصل بها أحد أفراد فريق عملها، أو أن يخرج أحد الجيران مصادفة إلى الممرّ فيراهما معاً. كان يعرف أن الجرائم الكبرى لا تنهار بسبب الأخطاء الكبيرة، بل بسبب تلك التفاصيل الصغيرة التي يظنّ مرتكبها أنها لن تحدث.

قاد سوسو إلى موقف السيارات السفلي عبر المخرج الخلفي للمبنى، بعد أن لفّ حول رأسها وشاحاً عريضاً أخفى معظم ملامحها. كانت خطواتها متعثّرة، وركبتاها ترتجفان حتى كادت تسقط أكثر من مرّة، فيما ظلّ يونس يمسك بذراعها بحزم، محافظاً على مظهر رجل يساعد امرأة مريضة لا أكثر. وبين الحين والآخر كانت تحاول أن تستدير نحوه بعينيها المتوسّلتين، لكنه كان يتجنّب النظر إليها، لأن أي لحظة تعاطف في هذه المرحلة قد تطيح بالخطة كلها.

فتح باب السيارة الخلفي وأجلسها في المقعد، ثم سحب حزام الأمان وأحكم تثبيته حولها قبل أن يغطي رأسها بالكامل بالوشاح. لم يفعل ذلك بدافع القسوة، بل لأنه كان يدرك أن مجرد نظرة عابرة من أحد المارّة قد تنسف كل شيء. أغلق الباب بهدوء، ودار إلى مقعد السائق، وأدار المحرك، فانطلقت السيارة خارج الموقف ببطء لا يلفت الانتباه.

طوال الطريق لم ينبس أيّ منهما بكلمة. لم يكن يُسمع سوى صوت المحرك القديم، وصفير الريح المتسلّل من النافذة، وأنفاس سوسو المتقطّعة القادمة من المقعد الخلفي. كانت تبكي بصمت، حتى إن بكاءها بدا أشبه بمحاولة يائسة لالتقاط الهواء. أما يونس، فقد ظلّ مثبّتاً بصره على الطريق، يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يزال يسيطر على الأمور، مع أن يديه كانتا تنقبضان على المقود بقوة حتى ابيضّت مفاصل أصابعه.

كل إشارة مرور كانت تبدو له فخّاً، وكل سيارة شرطة يلمحها في الجهة المقابلة كانت تدفع قلبه إلى حلقه. وحين مرّت إلى جانبه دورية سير من دون أن تعيره أي اهتمام، أطلق زفرة طويلة لم يشعر أنه كان يحبسها. فبعض الخوف لا نشعر بثقله إلا في اللحظة التي يُرفع فيها عنّا.

بعد نحو نصف ساعة، انعطفت السيارة نحو الأزقّة الضيقة المؤدّية إلى الحيّ القديم. هنا شعر بشيء من الطمأنينة؛ فهذه الشوارع يعرفها كما يعرف خطوط كفّه، ولا أحد فيها سيلتفت إلى سيارة قديمة تعود كل صباح إلى أحد البيوت العتيقة.

أوقف السيارة أمام منزل والده، وألقى نظرة سريعة في الاتجاهين، ثم ترجّل وفتح الباب الخلفي. كانت سوسو قد فقدت القدرة على المقاومة تقريباً، فأنزلها بحذر وأمسك بذراعها يقودها إلى الداخل. كان ارتجافها

يزداد مع كل خطوة، حتى إن ساقيها بالكاد حملتاها وهي تعبر عتبة المنزل.

ما إن دخلا الصالة حتى رفع أبو يونس رأسه ببطء عن كرسيه الخشبي. بقي يحدّق في الاثنين بضع ثوانٍ بعينين غائبتين، ثم قطّب حاجبيه فجأة، ولوّح بيده بانزعاج وهو يقول بنبرة امتزج فيها الخرف ببقايا هيبة قديمة:

ـ كيف تأتي بهذه الفتاة المتبرّجة الخليعة إلى هذا المنزل المحترم يا قليل الحشمة والأدب؟ هل جننت؟ لو وصلت زلفى الآن ورأتك بهذه الحالة، لجلدتني وإيّاك وألقت بنا في الشارع! أخرجها من هنا قبل أن تراها يا معتوه!

توقّف يونس للحظة، ونظر إلى والده نظرة طويلة لم تخلُ من المرارة. منذ سنوات طويلة، لم يعد الرجل يميّز الليل من النهار، ولا يعرف أسماء أفراد عائلته، لكنه ما زال يعيش تحت سلطة زوجته الراحلة، وكأنها غادرت الدنيا وتركت ظلّها حارساً لذاكرته؛ حتى الزهايمر، الذي محا وجوه الناس والأماكن، عجز عن محو الخوف منها. فبعض الذكريات لا تُمحى مع الذاكرة؛ إنها تسكن مكاناً أعمق من العقل، حيث لا يصل النسيان.

قال له يونس بهدوء وهو يحاول إنهاء الموقف بأسرع ما يمكن:

ـ حاضر يا أبي.. لن تراها.

هدأ العجوز فجأة، وأومأ برأسه راضياً عن الطاعة السريعة، ثم أضاف بجدّية من لا يعرف أن كارثة حقيقية تعبر صالته للتوّ:

ـ حسناً.. لكن بعد أن تنتهي من طرد "ضيفتك"، هل يمكن أن تحضّر لي كوب شاي؟ الساعة تأخّرت، والبيت بارد.

قاد يونس سوسو عبر الممرّ الضيّق حتى آخره، وفتح باب المطبخ القديم. كان المطبخ صغيراً، تكاد جدرانه تحتفظ برائحة الطعام الذي كانت أمه تطهوه قبل سنوات. الخزائن الخشبية المتآكلة ما زالت في أماكنها، والمنضدة الرخامية تحمل آثار الزمن، بينما تتدلّى من السقف لمبة صفراء خافتة جعلت المكان يبدو أكثر كآبة.

أجلس سوسو على كرسي خشبي قديم، ثم أمسك بالحبل وربط معصميها أولًا، وثبّت ساقيها إلى أرجل الكرسي بعقدة محكمة، راجعها مرتين كما كان يفعل في ذهنه وهو يتخيّل هذا المشهد طوال الليلة السابقة. بعد ذلك أخرج الشريط اللاصق، وتردّد لثانية قصيرة قبل أن يضغطه فوق فمها. ارتجف جسدها كله، واندفعت دموعها بغزارة حتى ابتلّ طرفا الشريط.

ابتعد عنها خطوة، وأخذ يلتقط أنفاسه. كان العرق يتصبّب من جبينه رغم برودة الطقس، وشعر بأن ساقيه لم تعودا قادرتين على حمله. فالجسد أحياناً يعرف الحقيقة قبل أن يعترف بها العقل، فيخون صاحبه بارتعاشة لا يستطيع كتمانها.

استند إلى حافة الثلاجة، وأغمض عينيه للحظة، ثم نظر إليها من جديد، وقال بصوت حاول أن يجعله هادئاً:

ـ اسمعيني جيداً.. أنا لا أريد إيذاءك، ولا بيني وبينك أي عداوة. كل ما أريده مليون دولار.. مليون واحد فقط، وبعدها ستخرجين من هنا سالمة، ولن يمسّك سوء. صدّقيني، لو كان عندي أي طريق آخر لما كنت واقفاً أمامك الآن.

كانت سوسو تهزّ رأسها بعنف، تحاول أن تقول شيئاً من خلف الشريط اللاصق، لكن الكلمات تحوّلت إلى أنين مكتوم لا يُفهم منه شيء.

أشاح يونس بوجهه عنها، وأخرج هاتفها المحمول الذي أخذه معه من على طاولة صالون منزلها. كان قلبه يخفق بعنف، لأنه يعرف أن المكالمة التالية ستكون أخطر خطوة في خطته كلها؛ فبمجرد أن يتصل بمدير أعمالها ويطلب الفدية، لن يعود مجرد رجل ارتكب حماقة، بل سيصبح رسمياً خاطفاً مطلوباً للشرطة.

فتح الهاتف، وما إن أوشك أن يبحث عن رقم مدير أعمالها حتى دوّى جرس الباب الخارجي فجأة.

تجمّد في مكانه، وبقي ممسكاً بالهاتف، وعيناه معلّقتان بالباب المغلق، بينما ساد البيت صمت ثقيل لثوانٍ معدودة. ثم دوّى الجرس مرة ثانية.

في تلك اللحظة اتّسعت عينا سوسو، واشتعل فيهما بريق أمل كاد يطغى على الرعب. راحت تتحرّك بعنف فوق الكرسي محاولة إصدار أي صوت، بينما ارتفع صوت الجدّ من الصالة، وقد بدا منزعجاً من استمرار الطارق:

ـ يا أنت الذي في المطبخ! افتح الباب.. هناك من يطرق الجرس منذ ساعة! وأين الشاي الذي طلبته؟!

ابتلع يونس ريقه بصعوبة، ووضع هاتف سوسو في جيبه بسرعة. أخرج المسدس البلاستيكي، وتأكّد غريزياً من وجوده في مكانه - ذلك السلاح الهزيل الذي كلّفه أقل من ثمن وجبة عشاء، والذي كان يوشك أن يقرّر

مصير أربعة أشخاص في آنٍ واحد - ثم أغلق باب المطبخ بإحكام وأدار المفتاح في القفل.

تقدّم في الممرّ بخطوات حذرة، حتى إنه أصبح يسمع احتكاك نعليه بأرضية البلاط القديمة. كان قلبه يخفق بقوة عنيفة، حتى خُيّل إليه أن الطارق في الخارج لا بدّ أنه يسمع دقّاته. وقف أمام الباب، ومدّ يده إلى المقبض ببطء. شعر ببرودة المعدن تنتقل إلى أصابعه، فأخذ نفساً عميقاً، ثم أدار القفل وفتح الباب.

تسمّرت عيناه؛ كان زياد يقف على العتبة.

بقي الاثنان ينظران إلى بعضهما لحظات طويلة، قبل أن يهمس يونس بصوت خرج متكسّراً من شدّة المفاجأة:

ـ زياد؟! ألم أقل لك أن تبقى عند أمك حتى أتصل بك؟ ماذا تفعل هنا؟

لكن زياد لم يُجب. لم يلتفت إلى ارتباك والده، ولا إلى العرق الذي يغطي وجهه، ولا إلى التوتر الذي يملأ ملامحه. كل ما فعله أنه تقدّم خطوة واحدة، ثم اندفع فجأة إلى صدر أبيه، وأحاط عنقه بذراعيه في عناق طويل لم يكن في الحسبان.

دفعت المفاجأة يونس إلى الجمود. بقي واقفاً مكانه، وذراعاه معلّقتان في الهواء، قبل أن يرفعهما ببطء ويضمّه إلى صدره. همس زياد بصوت خفيض اختلط فيه الخوف بالشوق:

ـ اشتقت إليك يا بابا..

أغمض يونس عينيه للحظة، وشعر بشيء ينكسر داخله. كان المشهد من الخارج يبدو كأنه لقاء أب وابنه بعد ساعات من الفراق، بينما في الطرف الآخر من الممرّ، خلف باب المطبخ المغلق، كانت سوسو تحاول بكل ما بقي لديها من قوة أن تدفع الكرسي بقدميها المقيّدتين، فيصدر عنه احتكاك خافت بالأرض، أشبه باستغاثة لا يسمعها أحد.

وفي الصالة، كان أبو يونس ما زال ينتظر شايه، غير آبه بأن بيته الصغير، الذي شهد زواجه وموت زوجته وتربية حفيده، قد تحوّل خلال ساعة واحدة فقط إلى مسرح جريمة كامل الأركان. فبعض البيوت تتحوّل إلى مسارح جريمة لا لأن أهلها أشرار، بل لأن الخوف، حين يتراكم طويلًا بصمت، يبحث دائماً عن ليلة واحدة ليخرج فيها دفعة واحدة.

الفصل السابع

الطريق الى... المطبخ

تجمّد يونس في مكانه، حتى خُيّل إليه أن البلاط القديم ابتلع قدميه. كان زياد قد ابتعد عنه خطوة واحدة فقط، لكنها بدت في عينَي الأب أخطر خطوة في حياته كلها. لم يكن يخشى الشرطة، ولا الفدية، ولا حتى السرطان الذي بدأ يعدّ أيامه الأخيرة، بل كان يخشى أن يلتفت ابنه نحو الممرّ المؤدي إلى المطبخ. هناك، خلف الباب الخشبي المغلق، كانت تقبع كل الأكاذيب التي حاول حياكتها منذ الصباح، مربوطة إلى كرسي خشبي، وتتنفس بصعوبة.

وقف زياد يراقب وجه والده بصمت. لم يكن قد فهم شيئاً بعد، لكن حواسه التقطت ذلك الاضطراب الذي لا يحتاج إلى تفسير. كان العرق يلمع فوق جبهة يونس رغم برودة الجوّ، وأنفاسه تتلاحق على نحو غير مألوف، فيما راحت عيناه تتنقلان بين ابنه والممرّ الضيق كأنهما تخشيان شيئاً يتربّص بهما.

ابتلع زياد ريقه وقال بقلق صادق:

ـ ما بك يا بابا؟ لماذا تبدو مرتبكاً إلى هذا الحدّ؟ كأنك ارتكبت جريمة!

أصابت العبارة يونس في مقتل. شعر لوهلة أن الحقيقة انكشفت كلها، وأن زياد لا يسأله بل يواجهه بما يعرفه. احتاج إلى ثانية كاملة حتى يستعيد توازنه، ثم حاول أن يرسم ابتسامة اعتاد استخدامها خلف الميكروفون

كلما اضطُرّ إلى إخفاء تعبه عن المستمعين، إلا أنها خرجت باهتة ومشوّهة.

ـ جريمة؟ لا يا حبيبي.. لا يوجد شيء من هذا القبيل. أنا فقط متعب قليلًا، ولم أتوقّع أن أراك هنا بهذه السرعة. يبدو أنني لم أنم بما يكفي، هذا كل ما في الأمر.

ظلّ زياد يحدّق فيه من دون اقتناع. لقد عرف والده طوال سبعة عشر عاماً، وكان يدرك أن هذا الرجل قد يجيد الكذب على ملايين المستمعين بصوته الإذاعي الهادئ، لكنه لا يجيد الكذب بعينيه؛ كانت عيناه دائماً تسبقان لسانه إلى الاعتراف. فالعيون، خلافاً للسان، لم تتعلّم يوماً فنّ الإذاعة.

وقبل أن يفتح فمه من جديد، انبعث من آخر الممرّ صوت احتكاك خافت، كأنّ قطعة أثاث ثقيلة انزلقت فوق البلاط. ساد صمت قصير، حتى كاد يونس يظنّ أن سوسو توقّفت أخيراً عن المقاومة، لكن الصوت عاد بعد ثانيتين، أقوى وأوضح هذه المرّة، ترافق مع ارتطام مكتوم بدا كأنه محاولة يائسة لدفع شيء ثقيل بكل ما بقي من قوة. انعطف رأس زياد فوراً نحو الممر، وانعقد حاجباه:

ـ ما هذا الصوت؟ هناك شيء يتحرّك في المطبخ!

لم يمنح يونس نفسه فرصة للتفكير. خرجت الكذبة من فمه أسرع مما خرج نَفَسه:

ـ لا بدّ أنه.. فأر.. أو ربما جرذ. هذا البيت قديم، ومنذ فترة بدأت تدخل إليه جرذان الحيّ. لا تهتمّ، سأضع لها سمّاً لاحقاً.

بقي زياد ينظر إلى الممرّ، ثم عاد بعينيه إلى والده:

ـ منذ متى تصدر الفئران أصواتاً تشبه تحريك الكراسي؟

شعر يونس بأن الأرض تميد تحت قدميه. فتح فمه ليجيب، لكنه لم يجد تفسيراً مناسباً. وفي اللحظة التي كان يبحث فيها عن كذبة جديدة، دوّى صوت الجدّ من الصالة، قاطعاً محاولاته كلها:

ـ هذا الرجل يكذب عليك يا ولد!

التفت الاثنان نحوه في الوقت نفسه. كان أبو يونس جالساً على كرسيه الخشبي، يلوّح بعصاه في الهواء بثقة رجل يعتقد أنه الوحيد الذي يرى الحقيقة، وقال وهو يهزّ رأسه باستنكار:

ـ لا يوجد فأر ولا جرذ. هناك امرأة في المطبخ. رأيتها بعينيّ هاتين. امرأة متبرّجة، تضع من المساحيق ما يكفي لدهان هذا البيت كله. تشبه تلك الراقصات اللواتي كنّ يفسدن أخلاق الشباب في التلفزيون.

شحب وجه يونس حتى كاد يفقد لونه، كورقة نسيها الخريف على غصنها. التفت إلى والده بعصبية مكتومة وقال:

ـ يا أبي.. أرجوك، لا تبدأ.

ثم نظر إلى زياد بسرعة وأضاف:

ـ جدّك يخرّف. أنت تعرف حالته، أليس كذلك؟ لا تلتفت إلى كلامه.

لكن الجدّ لم يتراجع، بل اعتدل في جلسته كأن كرامته أُهينت:

ـ أنا لا أخرّف. الذي يخرّف هو هذا الرجل. إن كنت لا تصدّقني، فادخل إلى المطبخ بنفسك، وسترى إن كنت أكذب.

ساد الصمت لثوانٍ ثقيلة. نظر زياد إلى جدّه، ثم إلى والده، ثم عاد ببصره إلى الباب المغلق في آخر الممر. كانت الشكوك تتكاثر في رأسه بسرعة، بينما أخذت ملامح يونس تفقد آخر ما بقي فيها من هدوء. اقترب الأب من ابنه خطوة، ووضع يده على كتفه قائلًا بنبرة حاول أن يجعلها حازمة:

ـ أتصدّق رجلًا مصاباً بالزهايمر، وتكذّب أباك؟

لم يُجب زياد. لم يكن يعرف من يصدّق، لكنه كان يعرف شيئاً واحداً: الأصوات التي خرجت من المطبخ قبل قليل لم تكن أصوات فئران، ولا بدا أن والده يتصرّف كرجل يخفي فأراً.

أدرك يونس أن نظرات ابنه بدأت تنزلق نحو الباب شيئاً فشيئاً، وأن ثواني قليلة فقط تفصله عن الكارثة، فقرّر أن يفعل أي شيء يصرف انتباهه، حتى لو بدا أحمقاً. ابتسم فجأة ابتسامة واسعة لا تشبه الموقف، وصفّق بكفّيه مرة واحدة قائلًا بصوت مرتفع:

ـ بالمناسبة.. هل أخبرتك أنني كنت أفكّر منذ قليل في مباراة المنتخب الأسبوع الماضي؟

نظر إليه زياد باستغراب. تابع يونس حديثه من دون انتظار جواب:

ـ الحقيقة أن المدرّب أخطأ كثيراً في التشكيلة. ثم تذكّرت شيئاً آخر.. هل أنهيت مراجعة الكيمياء؟ بالمناسبة، هل ما زلت تكره مادة الفيزياء؟ آه.. وهل أخبرتك أن أسعار البنزين انخفضت قليلًا هذا الأسبوع؟

كان ينتقل من موضوع إلى آخر بسرعة محمومة، حتى بدا كلامه أشبه بمذيع إذاعي يدير أربعة برامج مختلفة في الوقت نفسه. ثم، وكأن ذلك لم يكن كافياً، بدأ يدندن بصوت مرتفع مقطعاً من أغنية طربية قديمة كان يحفظها عن ظهر قلب منذ مراهقته، يصفّق بكفّيه خارج الإيقاع تماماً، محاولًا أن يطغى صوته على أي ضجيج قد يصدر من آخر الممر.

وقف زياد ينظر إليه بدهشة صامتة. لم يرَ والده يتصرّف بهذه الطريقة في حياته قط. لقد بدا، للمرّة الأولى، كرجل يحاول أن يخفي شيئاً أكبر بكثير من قدرته على الإخفاء. فبعض الأسرار تكبر أصحابها، حتى تعجز عنها الحيلة التي طالما أنقذتهم من أصغر منها.

ولم يكد يونس ينهي المقطع الغنائي حتى عاد الصوت من المطبخ، هذه المرّة أعنف من كل مرّة سبقتها. دوّى احتكاك الكرسي فوق البلاط كأنه صرخة خشبية طويلة، تبعه ارتطام قوي بالجدار، حتى اهتزّ إطار الصورة المعلّقة في الممر اهتزازة خفيفة.

توقّفت الأغنية على شفتَي يونس فجأة. أما زياد، فلم يعد بحاجة إلى تفسير. رفع رأسه ببطء، وحدّق في الباب المغلق عند نهاية الممر، ثم قال بصوت منخفض، لكنه حاسم:

ـ هذا ليس فأراً.

حاول يونس أن يبتسم مجدداً، إلا أن عضلات وجهه كانت قد استنفدت قدرتها على التمثيل:

ـ ربما.. ربما وقعت إحدى الخزائن القديمة. سأصلحها لاحقاً.

لم يردّ زياد، بل أخذ خطوة إلى الأمام. وفي اللحظة نفسها، تحرّك يونس بسرعة ووضع جسده في منتصف الممر، كمن يقف أمام باب غرفة عمليات لا يسمح لأحد بالدخول إليها، وقال وهو يمدّ ذراعيه بعفوية مصطنعة:

ـ إلى أين؟

أجاب زياد وهو يحاول الالتفاف من جانبه:

ـ أريد أن أشرب كوب ماء.

ـ سأحضره لك.

ـ لا داعي.. أعرف أين المطبخ.

ـ قلت لك سأحضره أنا.

ساد صمت ثقيل بينهما. لم يعد الحديث يدور حول كوب ماء، وكان الاثنان يعلمان ذلك جيداً. كانت عيناهما متشابكتين في مواجهة صامتة، لا تشبه أياً من المواجهات السابقة بين أب وابنه. لأول مرة، شعر يونس أن ابنه لم يعد ذلك الفتى الذي يمكن إقناعه بكذبة مرتجلة، ولأول مرة شعر زياد أن والده يخفي شيئاً يستحقّ أن يقاتل من أجل إخفائه. وهكذا تنتهي كل طفولة: في اللحظة التي يكتشف فيها الابن أن أباه يكذب، لا لأنه شرير، بل لأنه إنسان.

ـ ابتعد يا بابا.

هزّ يونس رأسه نافياً:

ـ ليس الآن.

ـ لماذا؟

تردّد يونس لحظة، ثم قال أول عذر خطر بباله:

ـ لأن.. لأن المطبخ في حالة فوضى.

نظر إليه زياد باستغراب:

ـ منذ متى تخجل من فوضى المطبخ؟

أدرك يونس أن الكذبة سقطت قبل أن تكتمل، فانتقل إلى أخرى:

ـ هناك زجاج مكسور.. قد تؤذي نفسك.

وقبل أن ينهي جملته، دوّى صوت جديد من الداخل، تبعه أنين مكتوم، قصير لكنه واضح بما يكفي ليُسقط آخر جدار من الأكاذيب. اتّسعت عينا زياد؛ لم يكن ذلك صوت كرسي، ولا صوت خزانة، ولا صوت فأر. كان صوت إنسان. قال ببطء، وكأنه يخشى الإجابة:

ـ هناك.. شخص في الداخل.

أجابه يونس بسرعة أقرب إلى الصراخ:

ـ لا!

ثم أدرك أنه صرخ أكثر مما ينبغي، فأغمض عينيه لحظة وهو يلعن نفسه في سرّه.

تراجع زياد نصف خطوة، وأخذ ينظر إلى والده نظرة لم يرها يونس في عينيه من قبل. لم تكن نظرة خوف، ولا غضب، بل نظرة شكّ عميق، كأن صورة الأب التي عاش بها سنوات طويلة بدأت تتشقّق أمامه.

وفي تلك اللحظة، قرّر الجدّ أن يضيف نصيبه المعتاد من الفوضى. نهض ببطء من كرسيه، مستنداً إلى عصاه، ثم سار نحو الممرّ بخطوات متثاقلة وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة. وحين وصل قريباً منهما، قال وهو ينظر إلى يونس بازدراء:

ـ منذ الصباح وأنا أقول لك: أخرج المرأة من المطبخ، وأنت لا تسمع الكلام. الآن انكشف أمرك.

أغمض يونس عينيه للحظة. لو أن الأرض انشقّت تحت قدميه في تلك اللحظة، لكان ذلك أهون عليه من استمرار والده في الحديث.

ـ أبي.. بالله عليك، ارجع واجلس.

لكن الرجل لم يلتفت إليه، بل اقترب من زياد وربّت على كتفه، ثم همس له بصوت يظنّ أنه منخفض، بينما كان يسمعه نصف الحيّ:

ـ أبوك وقع في الغرام على كِبَر.

ثم أشار بعصاه نحو باب المطبخ وأضاف بثقة لا تتزعزع:

ـ لكنها لا تبدو زوجة مناسبة.. كثيرة المساحيق.

رغم التوتّر الذي كان يخنق المكان، كادت العبارة تنتزع ابتسامة من زياد، إلا أن الفضول كان أقوى من أي شيء آخر. فالفضول، في اللحظات الحرجة، يهزم حتى أشدّ المخاوف رسوخاً.

نظر إلى الباب مرة ثانية، ثم عاد ينظر إلى والده، وقال بهدوء هذه المرة:

ـ ابتعد يا بابا.. أرجوك.

الفصل الثامن

سوسو في ديارنا

لم يتحرّك يونس. كانت قدماه مثبّتتين أمام الباب، كأنهما آخر حاجز يفصل بين عالمين؛ العالم الذي عرفه ابنه طوال عمره، والعالم الحقيقي الذي سيكتشفه بعد ثوانٍ إذا دخل ذلك المطبخ.

شعر يونس بأن قلبه يخفق بعنف داخل صدره. لم يعد يعرف أيّهما أسوأ: أن يكتشف زياد الحقيقة، أم أن يبقى واقفاً يمنعه بالقوة، وهو يعلم أن الثانية ستقود حتماً إلى الأولى.

وفي الداخل، كانت سوسو قد سمعت الأصوات كلها. أدركت أن شخصاً جديداً وصل إلى المنزل، وأن هناك جدالًا يدور خارج الباب، فأخذ الأمل يتسلّل إليها من جديد. راحت تجمع ما بقي لديها من قوة، ثم دفعت الكرسي بكل عنف نحو الأرض، فاصطدمت إحدى قوائمه بطاولة المطبخ، وارتفع صوت الارتطام مدوّياً في أنحاء البيت.

رفع زياد رأسه فوراً، ثم، من دون كلمة واحدة، انطلق نحو المطبخ كالسهم. تحرّك بغريزة أسرع من التفكير، لكن يونس اندفع خلفه في اللحظة نفسها، وأمسكه من ذراعه قبل أن يصل إلى الباب بخطوة واحدة. كانت قبضته قوية على غير عادته، حتى إن زياد التفت إليه بدهشة؛ فمنذ سنوات طويلة لم يستخدم والده القوة معه، بل لم يرفع صوته في وجهه إلا نادراً.

قال يونس وهو يلهث، وقد اختلط الرجاء بالخوف في صوته:

ـ لا تفتح الباب يا زياد.. أرجوك.

حدّق زياد في وجهه طويلًا. لم يعد يرى أمامه ذلك الأب الهادئ الذي اعتاد الانسحاب من كل مواجهة، بل رجلًا محاصراً، يتشبّث بآخر خيط ينقذه من الانهيار. قال بهدوء أربك يونس أكثر من أي صراخ:

ـ إذا لم يكن هناك شيء.. فلماذا تمنعني؟

لم يجد يونس جواباً. بقيت شفتاه تتحرّكان من دون أن تخرجا كلمة واحدة، بينما كانت الأفكار تتدافع في رأسه بسرعة جنونية. لأول مرة منذ قرّر تنفيذ خطته، شعر أنه وصل إلى طريق مسدود لا تنفع معه الحيلة ولا الكذبة.

وفي الداخل، عادت سوسو تدفع الكرسي بكل ما بقي لديها من قوة. كان الأنين المكتوم الذي يخرج من خلف الشريط اللاصق يختلط بصوت احتكاك الخشب بالأرض، حتى بدا المطبخ كله كأنه يقاوم معها. أغمض يونس عينيه للحظة قصيرة، ثم فتحهما وقد أدرك أن النهاية أصبحت على بعد ثوانٍ.

استغلّ زياد تلك اللحظة، وأفلت ذراعه بحركة سريعة، ثم اندفع نحو الباب. حاول يونس أن يمسكه مرة أخرى، لكنه تأخّر جزءاً من الثانية، وكان ذلك الجزء كافياً. أمسك زياد بالمقبض، وأدار القفل، ثم دفع الباب بقوة.

انفتح الباب على مصراعيه. ساد صمت ثقيل، حتى إن عقارب الساعة المعلّقة في الصالة بدت وكأن صوتها أصبح مسموعاً.

وقف زياد عند العتبة، وبقيت يده معلّقة على المقبض، بينما راحت عيناه تتحرّكان ببطء داخل المطبخ، كأن عقله يرفض أن يصدّق ما يراه: امرأة

مقيّدة إلى كرسي خشبي، معصماها مربوطان بحبل سميك، وقدماها مثبّتتان إلى أرجل الكرسي، وشريط لاصق عريض يغطّي فمها. وشعرها الأشقر، الذي اعتادت الجماهير رؤيته مصفّفاً بعناية على شاشات التلفزيون، كان مبعثراً فوق كتفيها، وقد اختلطت مساحيق التجميل بدموعها حتى فقد وجهها بريقه المعتاد.

ظلّ زياد يحدّق فيها ثوانٍ طويلة، ثم همس بصوت خرج بالكاد:

ـ لا.. مستحيل..

اقترب خطوة أخرى، ثم اتّسعت عيناه فجأة، كأن اسماً انفجر في رأسه:

ـ نجمتي سوسو..؟

رفعت سوسو رأسها نحوه بسرعة، وانفجرت الدموع من عينيها بمجرد أن رأت وجهاً جديداً. أخذت تهزّ رأسها بعنف، وتصدر أصواتاً مكتومة من خلف الشريط اللاصق، محاولة أن تخبره بأي شيء، بأي كلمة، بأي استغاثة يمكن أن تنقذها.

أما زياد، فقد بدا وكأنه خرج من جسده. هذه ليست مجرد امرأة مخطوفة؛ هذه الفتاة التي علّق صورتها فوق سريره منذ عامين، وحفظ كلمات أغانيها السخيفة عن ظهر قلب، وتشاجر مع أصدقائه أكثر من مرة دفاعاً عنها، وادّعى أمام الجميع أنها تملك صوتاً جميلًا بينما كان يعلم في قرارة نفسه أنها بالكاد تستطيع الغناء. كان يتابع كل مقابلاتها، ويضغط زرّ الإعجاب على كل صورة تنشرها، ويحلم، مثل آلاف المراهقين، أن يلتقيها يوماً ولو لثوانٍ. لكنه لم يتخيّل، في أكثر أحلامه جنوناً، أن يكون اللقاء الأول داخل مطبخ بيت جدّه، وهي مربوطة إلى كرسي، وخاطفها هو والده!

استدار ببطء نحو يونس. كانت ملامحه خليطاً غريباً من الصدمة، والحيرة، والشفقة، والغضب:

ـ بابا.. ما هذا؟

لم يُجب يونس. كرّر زياد السؤال، وقد ارتفعت نبرته قليلًا:

ـ ماذا فعلت؟

ظلّ يونس صامتاً، كأن الكلمات تخلّت عنه. ثم نظر زياد إلى سوسو مرّة أخرى، قبل أن يعيد بصره إلى أبيه، وقال الجملة التي لم يكن يونس مستعدّاً لسماعها:

ـ أنت.. خطفت نجمتي؟

شعر يونس أن الجملة اخترقت صدره بطريقة لم يتوقّعها. من بين كل الأسئلة التي كان يستعدّ للإجابة عنها، لم يخطر بباله أن يكون أول ما يشغل ابنه هو أن المخطوفة هي مطربته المفضّلة.

أخذ نفساً عميقاً، ثم أخرج ببطء المسدس الأسود من جيبه، فارتجفت سوسو من جديد، لكن يونس ضغط على الزناد أمامهما. صدر صوت بلاستيكي أجوف، وسقطت من مقدمة المسدس قطعة برتقالية صغيرة كانت تغطّي الفوهة من الداخل. رفع المسدس بين يديه وقال بصوت متهدّج:

ـ انظر جيداً.. هذا ليس سلاحاً حقيقياً. لعبة أطفال اشتريتها من متجر ألعاب. لم أكن أنوي قتل أحد، ولا إيذاء أحد. أقسم لك يا زياد أنني لم ألمسها بسوء، ولن ألمسها.

ثم ألقى المسدس على الطاولة الخشبية، وكأنه يريد أن يتخلّص من ثقله النفسي قبل ثقله الحقيقي، واقترب خطوة من ابنه. كانت عيناه تلمعان بدموع قاومها بصعوبة:

ـ اسمعني.. أنا أعرف كيف يبدو الأمر، وأعرف أنني أبدو أمامك مجنوناً.. لكنني لم أفعل هذا من أجل نفسي. لم أفكّر في نفسي لحظة واحدة. أنا رجل انتهى يا زياد.. الأطباء قالوا إن أيامي أصبحت معدودة، ولم يعد في الدنيا علاج يمكن أن يغيّر شيئاً.

ابتلع ريقه، ثم تابع بصوت أكثر انكساراً:

ـ كل ما فكّرت فيه هو أنت.. ماذا سيبقى لك بعد أن أموت؟ ماذا سأترك لك غير الديون، وجدّك المريض، وأمّاً غاضبة، واسم أبٍ سيذكره الناس على أنه الرجل الذي فضح زوجته على الهواء؟ لم يكن عندي بيت أورثك إياه، ولا حساب مصرفي، ولا شركة، ولا حتى سيارة تساوي شيئاً. هذه المليون دولار.. لم تكن لتطيل عمري يوماً واحداً.. كانت كل ما أردت أن أتركه لك بعد رحيلي.

ساد الصمت في المطبخ بعد كلمات يونس. حتى سوسو، التي كانت قبل دقائق تدفع الكرسي بكل ما أوتيت من قوة، توقّفت عن الحركة، وحدّقت فيه بعينين غارقتين في الدموع. لأول مرة منذ اختطافها، لم ترَ أمامها مجرماً متعطّشاً للمال، بل رجلًا يقف على حافة الانهيار، يتحدّث وكأنه يدافع عن آخر ما تبقّى من إنسانيته. فبعض الجرائم لا تُرتكب طلباً للمال، بل هرباً من الفراغ الذي سيخلّفه غيابه.

أما زياد، فظلّ يرمق والده طويلًا. كانت عيناه تتحرّكان بين المسدس البلاستيكي المستلقي على الطاولة، وسوسو المقيّدة، ووجه أبيه الذي بدا أكبر من عمره بعشرين سنة.

شعر أن الحقيقة التي اكتشفها قبل دقائق بدأت تتشقّق لتكشف حقيقة أخرى أكثر تعقيداً؛ لم يعد الأمر مجرد جريمة، ولم يعد مجرد قصة أب يحتضر، بل أصبح شيئاً لا يعرف له اسماً. فالحياة، حين تنقلب فجأة، لا تمنحنا أسماء جاهزة لما نعيشه؛ نخترعها لاحقاً، حين نروي القصة لأنفسنا.

ظلّ صامتاً لثوانٍ، ثم قال بهدوء غريب:

ـ بابا.. لو كان الشخص الذي ربطته هنا أي إنسان آخر في الدنيا، لكنت توسّلت إليك الآن، وربما اتصلت بالشرطة أيضاً.. لكن..

توقّف قليلًا، ونظر إلى سوسو، ثم ابتسم ابتسامة صغيرة مرتبكة، قبل أن يكمل:

ـ لكن لأنها حبيبتي سوسو..

رفع يونس رأسه نحوه ببطء، غير مصدّق ما يسمع. أكمل زياد، وقد بدأ حماسه المراهق يتغلّب على صدمته شيئاً فشيئاً:

ـ أنا لا يهمّني المال، ولا المليون دولار، ولا أفهم أصلًا كيف ستطلب الفدية.. لكن هل تدرك أن نصف شباب البلد يحلمون بصورة معها، وأنا وجدتها فجأة في مطبخ بيت جدّي؟.. شكراً بابا.

عانق زياد والده بقوة هائلة.

حدّقت سوسو فيه بذهول، حتى إنها نسيت دموعها للحظة. قال زياد بحماس طفولي صادق:

ـ أقسم لك يا بابا، لو أخبرت أصدقائي الآن أن سوسو موجودة عندنا في البيت، فلن يصدّقني أحد، حتى لو أحضرتهم ليروها بأعينهم.

ظلّ يونس يحدّق في ابنه، عاجزاً عن استيعاب ما يحدث. كان قد هيّأ نفسه لأن يسمع كلمات الاحتقار، أو الغضب، أو الوعظ، لكنه لم يتخيّل أن تكون المشكلة الأساسية عند ابنه هي أنه التقى بمغنّيته المفضّلة في ظروف غير قانونية.

ـ يا زياد.. هل أنت واعٍ لما تقوله؟ هذه جريمة.

هزّ زياد كتفيه قائلًا:

ـ أعلم أنها جريمة.. وأنا لا أوافق عليها.. لكن بما أنها وقعت بالفعل..

ثم نظر إلى سوسو بخجل واضح:

ـ ..فلا أمانع أن أجلس معها وقتاً قبل أن تنتهي.

لو لم يكن الموقف بهذه الخطورة، لضحك يونس من قلبه. أما سوسو، فقد اتّسعت عيناها أكثر، وكأنها بدأت تشكّ أن الجنون في هذا المنزل معدٍ، وأنها إن بقيت فيه ساعات إضافية فستصاب به هي الأخرى.

وفي ذروة هذا العبث، ظهر الجدّ عند باب المطبخ، متكئاً على عصاه، يرمش بعينيه عدّة مرّات وهو يتأمّل المشهد. قال بعد تفكير عميق:

ـ أها.. الآن فهمت.

التفت الجميع إليه. هزّ رأسه بحكمة مصطنعة، وقال بثقة العارف بكل شيء:

ـ لقد ظلمتك يا أستاذ.

تنفّس يونس الصعداء للحظة، ظانّاً أن والده نسي ما جرى. لكن الرجل المسنّ تابع كلامه:

ـ هذه ليست عشيقتك.

تبادل يونس وزياد النظرات. أكمل الجدّ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة المنتصر الذي فكّ اللغز:

ـ هذه هي الخادمة الجديدة.. وربطتها لأنها سرقتكم.

نظر يونس إلى والده، ثم إلى زياد، ثم عاد إلى والده مرّة أخرى. وبعد ثانيتين فقط، وجد نفسه يهزّ رأسه موافقاً بصورة آلية، كالغريق الذي يتمسّك بأي خشبة تطفو أمامه:

ـ نعم يا أبي.. صحيح. هذه الخادمة الجديدة، وقد حاولت سرقتنا.

قال الجدّ وهو يضرب الأرض بعصاه:

ـ أحسنت. السارق يجب أن يُربط حتى تأتي الشرطة.

كانت سوسو تنظر إليهم واحداً تلو الآخر، وقد تجاوزت الصدمة مرحلة الرعب. لو أخبرها أحد صباح اليوم، وهي تغادر منزلها متذمّرة لأن مصفّف

الشعر أخطأ في لون خصلات شعرها، أنها ستقضي جزءاً من نهارها مربوطة داخل مطبخ قديم، يتّهمها رجل مصاب بالزهايمر بأنها خادمة سارقة، بينما يوافقه خاطفها حفاظاً على ماء وجهه أمام ابنه، لظنّت أن صاحب هذه القصة يحتاج إلى علاج نفسي عاجل. فحين يفوق العبث كل تصوّر، يكفّ العقل عن الخوف، ويبدأ بالضحك دفاعاً عن نفسه.

ثم أضاف الجدّ فجأة، وهو يحدّق في وجهها:

ـ لكن الحقيقة.. لا تبدو عليها ملامح الخادمات.

نظر الجميع إليه بترقّب. قطّب حاجبيه، ثم قال باستياء حقيقي:

ـ الخادمات عندنا أشطر من هذه بكثير.

ساد صمت قصير. وفي اللحظة التالية، حدث أمر لم يكن أحد منهم مستعدّاً له.

في البداية ظنّ يونس أن سوسو تبكي من جديد، لأن كتفيها أخذا يهتزّان بعنف. ثم خُيّل إليه أنها تختنق، فتقدّم نحوها غريزياً. لكن بعد ثانيتين فقط، سمع صوتاً مكتوماً يتسرّب من خلف الشريط اللاصق. لم يكن بكاءً.

كان ضحكاً.

ضحكة قصيرة. تبعتها ثانية أطول. ثم ثالثة. وفجأة انفجرت سوسو في نوبة ضحك هستيرية، حتى اهتزّ الكرسي كله تحتها، وامتلأ المطبخ بأصوات قهقهاتها المكتومة، فيما انهمرت الدموع من عينيها، لا من الخوف هذه المرّة، بل من شدة الضحك.

وقف الرجال الثلاثة ينظرون إليها بذهول. همس زياد:

ـ هل.. هل نجمتي فقدت عقلها؟

أما الجدّ، فأومأ برأسه مطمئناً وقال بثقة:

ـ قلت لكم.. السرقات تفسد الأخلاق.

ظلّ يونس يحدّق في سوسو، عاجزاً عن فهم ما يحدث. طوال الساعات الماضية، توقّع منها الصراخ، والتهديد، والانهيار، وحتى الإغماء، لكنه لم يتوقّع أبداً أن تنفجر ضاحكة وهي في هذا الوضع.

دفعه الفضول أخيراً إلى الاقتراب منها. انحنى أمامها، وأخذ يتأمّل عينيها اللتين امتلأتا بالدموع، ثم مدّ يده ببطء نحو الشريط اللاصق. تردّد لحظة قصيرة، ثم نَزَعَه بخَطْفَةٍ واحدة.

شهقت سوسو من الألم، وأخذت تلتقط أنفاسها بسرعة، بينما بقي الثلاثة يحدّقون فيها في انتظار أول كلمة ستخرج من فمها. لم تمضِ سوى ثانيتين، حتى عادت إلى الضحك من جديد.

وقف يونس وزياد وأبو يونس حول امرأة مقيّدة تضحك حتى الدموع، في مطبخ بيت عمره أربعون عاماً، وأدرك يونس فجأة أن هذا المشهد بالذات - أب يحتضر، وابن مراهق معجب بضحيته، وجدّ خرف يوزّع الاتهامات الخاطئة، ومطربة مخطوفة لا تتوقف عن الضحك - ملخّص دقيق لكل ما آلت إليه حياته: فوضى لا تشبه شيئاً مما خطّط له، لكنها، ولسبب ما، كانت أول لحظة منذ سنوات يشعر فيها أنه حيّ فعلًا. فالحياة نادراً ما تشبه الخطة، لكنها كثيراً ما تشبه الحقيقة.

الفصل التاسع

تحالف المترديّة والنطيحة

ظلّت سوسو تستعيد أنفاسها بصعوبة، بينما بقي الأثر الأحمر الذي خلّفه الشريط اللاصق يطوّق شفتيها كأنه تذكارٌ سخيف من أسوأ يوم في حياتها. رفعت رأسها ببطء، وأخذت تتأمل الوجوه الثلاثة الواقفة أمامها: رجلٌ فاشل يحتضر يحمل مسدساً بلاستيكياً ويتصرّف كأنه زعيم عصابة، ومراهق ينظر إليها بعينين تلمعان بإعجاب لا يخطئه أحد، وشيخٌ تجاوزته الذاكرة بسنوات طويلة، وما يزال مقتنعاً بأنها خادمة وسارقة في آنٍ واحد.

كانت الصورة من العبث بحيث لم تستطع مقاومة ضحكة جديدة، لكنها تماسكت هذه المرة، ومسحت دموعها بطرف كتفها، ثم قالت وهي تهزّ رأسها بأسف ساخر:

ـ بالله عليكم.. أنتم تعيشون في كوكب آخر. هل تعتقدون حقاً أن اختطافي سيجلب لكم مليون دولار؟ اختطافي يا سادة سيجلب لكم مليون حذاء على رؤوسكم!

قطّب يونس حاجبيه، وقد بدا كأنها أهانت الخطة الوحيدة التي بقيت له في الحياة:

ـ ولماذا لا؟ أنتِ الفنانة النجمة سوسو. الناس تحفظ اسمكِ أكثر مما تحفظ أسماء الوزراء. حفلاتكِ بالملايين، وصوركِ تملأ الشوارع، وأخباركِ لا تغيب عن الشاشات. أليست هذه هي النجومية؟

تنهّدت سوسو طويلًا، ثم ابتسمت ابتسامة مريرة:

ـ هذه هي النجومية أمام الكاميرا فقط.

ساد الصمت، فتابعت بنبرة أكثر هدوءاً:

ـ أخبرني.. هل سبق أن رأيت ممثلًا يؤدي دور المليونير في فيلم؟

أومأ يونس برأسه.

ـ هل يعني ذلك أنه يملك قصراً ويختاً وطائرة خاصة؟

لم يُجب.

ـ الفن يا أستاذ يونس هو أكبر مصنع للأوهام في هذا العالم. نحن نبيع الناس حلماً، ثم نعود إلى بيوتنا لنكتشف أننا لا نملك ثمن هذا الحلم. والأوهام، حين تُباع بالتقسيط، يصبح صاحبها أول من يفلس.

نظر إليها زياد باستغراب، بينما بدأت ملامح يونس تفقد شيئاً من يقينها. وقالت سوسو وهي تسند ظهرها إلى الكرسي:

ـ انفصلت عن زوجي قبل أشهر قليلة. أو بالأصح.. هو انفصل عن أموالي قبلي.

ثم ضحكت ضحكة قصيرة خالية من الفرح:

ـ كنت أظن أنني متزوجة من رجل أعمال، ثم اكتشفت أنني كنت متزوجة من محامٍ بارع أكثر مما هو رجل أعمال!

أخرجت زفرة طويلة، وأكملت:

ـ طوال سنوات الزواج، كان يطلب مني التوقيع على أوراق لا أقرأها. كان يقول إنها معاملات ضريبية، أو عقود رعاية، أو أوراق تخص الشركات. وأنا، بكل الغباء الذي يصيب الإنسان عندما يثق بمن يحب، كنت أوقّع.

صمتت لحظة، ثم رفعت عينيها إلى يونس:

ـ وحين وقع الطلاق، اكتشفت أنني وقّعت أيضاً على التنازل عن نصف حياتي، ثم عن نصف النصف، ثم عن البقية كلها.

بدأت الصدمة تتسلل ببطء إلى وجه يونس. وقالت وهي تشير بيدها إلى الخارج:

ـ الشقة التي جئتَ منها ليست لي. السيارة التي كنت أتنقل بها ليست لي. حتى الأثاث الذي جلستُ عليه قبل ساعة أصبح محجوزاً للدائنين. المجوهرات التي تراني أرتديها في المقابلات؟ معظمها إكسسوارات تعيرها شركات الأزياء ثم تستعيدها بعد انتهاء التصوير. أما الحقائب الفاخرة التي يتغنى بها الناس في التعليقات، ففي داخلها أحياناً شطيرة جبن وزجاجة ماء لأنني لا أملك وقتاً ولا مالًا لأتناول الغداء!

توقّف زياد عن التحديق في هاتفه لأول مرة، وقال بعدم تصديق:

ـ لكن.. أنتِ تتصدرين الترند كل أسبوع!

ابتسمت سوسو بمرارة:

ـ وهل الترند يدفع فاتورة الكهرباء؟

ساد صمت قصير، ثم أضافت وهي تنظر مباشرة إلى يونس: ـ أقسم لك أنني منذ شهرين عرضت إحدى حقائبي للبيع على الإنترنت لأدفع مستحقات متأخرة، ولم يشترها أحد. يبدو أن الناس يفضلون مشاهدة الأغنياء.. لا مساعدتهم. فالفقر المموَّه بالبريق لا يستدرّ العطف، بل الحسد.

بدأت كلماتها تنخر الجدار الذي بناه يونس حول حلمه. اقترب منها خطوة، وقال بريبة واضحة:

ـ لا.. أنتِ تكذبين.

رفعت حاجبها:

ـ ولماذا سأكذب؟

ـ لأن كل مخطوف في الدنيا سيقول إنه فقير حتى ينجو.

ضحكت سوسو من جديد، لكن ضحكتها هذه المرّة خرجت هادئة:

ـ وهل لديك خبرة كبيرة مع المخطوفين حتى أصبحت خبيراً في علم نفسهم؟

احمرّ وجه يونس قليلًا، ولم يجد ما يردّ به. فاستغلت صمته، وأردفت بنبرة أكثر حدة:

ـ دعنا نفترض أنني مليونيرة فعلًا. حسناً.. ماذا بعد؟

نظر إليها باستغراب، فقالت:

ـ كيف كنت ستطلب الفدية؟

ظلّ صامتاً.

ـ هل تعرف كيف يتفاوض الخاطفون؟

لا جواب.

ـ هل لديك هاتف لا يمكن تتبعه؟ مكان آمن؟ سيارة هروب؟ رجل يستلم المال؟ خطة للفرار؟ شخص واحد يساعدك؟

ثم مالت نحوه قليلًا، وقالت وهي تبتسم ابتسامة ساخرة أصابت كبرياءه في الصميم:

ـ يا يونس.. أنت لا تصلح حتى لخطف دجاجة.. فكيف خطفت نجمة؟

ساد الصمت في أرجاء الصالة. أما يونس، فقد شعر لأول مرّة منذ حمل ذلك المسدس البلاستيكي أن خطته كلها لم تكن سوى حلم ساذج بناه رجل لم يكن يعرف عن عالم الجريمة شيئاً، تماماً كما لا يعرف المجرمون شيئاً عن تقديم البرامج الإذاعية.

ظلّ يونس واقفاً مكانه، كأن الجملة الأخيرة سلبت منه القدرة على الحركة. لم تكن المشكلة في أن سوسو سخرت منه، بل في أنها كانت محقّة في كل كلمة قالتها. منذ أن خطرت له فكرة الاختطاف، انشغل بالسؤال: كيف سيحصل على المليون؟ لكنه لم يسأل نفسه مرّة واحدة: ماذا سيفعل بعد أن يحصل عليها؟ كيف سيأخذها؟ وأين سيخفيها؟ وكيف سيخرج من المدينة ورجال الأمن يفتشون عنها؟ لقد بنى خطته كما يبني الأطفال قلاعاً من الرمل؛ جميلة من بعيد، لكنها تنهار عند أول

موجة. وهذا، ربما، هو الفرق الوحيد بين الحلم والخطة: الحلم لا يحتاج إلى أن ينجح ليبقى جميلًا.

قال بصوت خافت، وكأنه يعترف لنفسه أكثر مما يخاطبها:

ـ ربما.. لم أفكر في كل ذلك.

ابتسمت سوسو ابتسامة قصيرة، لكنها لم تكن ابتسامة شماتة، بل ابتسامة شخص رأى انهيار خصمه، فعرف أن وقت الحقيقة قد حان:

ـ لم تفكر في أي شيء، لأنك لست مجرماً، وهذا واضح منذ اللحظة التي دخلت فيها بيتي.

نظر إليها باستغراب، فتابعت وهي تشير إلى المسدس البلاستيكي الموضوع على الطاولة:

ـ أي خاطف محترف يقتحم بيت ضحيته بسلاح لعبة اشتراه من متجر أطفال؟

ثم أشارت إلى الحبل الملقى على الأرض:

ـ وأي خاطف يشتري حبلًا من متجر الأدوات المنزلية ويترك عليه بطاقة السعر حتى آخر لحظة؟

انحنى يونس بسرعة، والتقط البطاقة الورقية الصغيرة التي كانت لا تزال معلقة بطرف الحبل، ثم مزقها في ارتباك، بينما ارتسمت على وجه زياد ابتسامة حاول إخفاءها عبثاً.

لم تكتفِ سوسو بذلك، بل تابعت وكأنها تعدد أخطاء طالب رسب في امتحان بسيط:

ـ عندما دخلت منزلي أبرزت بطاقتك الإذاعية الحقيقية للخادمة، وذكرت اسمك الكامل، ثم صعدت إلى شقتي من دون أن ترتدي قبعة أو نظارة أو حتى كمامة. وبعدها، عندما أشهرْتَ المسدس في وجهي، كنت ترتجف أكثر مني.

خفض يونس رأسه بصمت.

ـ والأسوأ من ذلك كله..

توقفت قليلًا، ثم قالت وهي تكاد تنفجر ضاحكة:

ـ أنك اعتذرت مني!

رفع يونس رأسه فجأة:

ـ ماذا؟

ـ نعم.. قبل أن تربطني مباشرة قلت لي: "آسف جداً على الإزعاج."

احمرّ وجه يونس حتى كاد يلامس لون الطماطم، بينما انفجر زياد ضاحكاً هذه المرّة، وقال وهو يمسح دموع الضحك:

ـ بابا.. هل اعتذرت فعلًا من المخطوفة؟

تمتم يونس وهو يشيح بنظره:

ـ يبدو أنني.. فعلت.

قالت سوسو وهي تضرب بكفها على الطاولة:

ـ بقي فقط أن تقدم لي استبياناً لتقييم جودة عملية الخطف!

حتى يونس نفسه لم يستطع مقاومة ابتسامة صغيرة، سرعان ما اختفت عندما عاد إليه الواقع. جلس على الكرسي المقابل لها، وأطرق برأسه طويلًا:

ـ انتهى الأمر إذن.

ساد الصمت، ثم أردف:

ـ لا مليون دولار.. ولا مستقبل لزياد.. ولا شيء.

كانت نبرة صوته هذه المرّة مختلفة؛ لم يعد يتحدث كرجل يبحث عن حل، بل كرجل سقط آخر جدار كان يستند إليه. راقبته سوسو للحظات، ثم انطفأت السخرية من ملامحها شيئاً فشيئاً، وقالت بهدوء:

ـ اسمع يا يونس..

رفع رأسه ببطء.

ـ عندما كنت مربوطة على ذلك الكرسي، ظننت أنني وقعت بين يدي مجرم حقيقي.

سكتت لحظة، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة:

ـ وبعد ساعة اكتشفت أن الذي خطفني رجل يحتضر.. ولا يعرف حتى كيف يكون مجرماً.

تنهدت، وأراحت ظهرها إلى الكرسي:

ـ تصدق؟

نظر إليها مستغرباً.

ـ للمرّة الأولى منذ طلاقي، أرى شخصاً أكثر بؤساً مني.

ابتسم يونس بسخرية سوداء:

ـ تهانينا.. لقد فزتِ بالمركز الثاني.

ضحكت سوسو، ثم هزت رأسها:

ـ لا.. أظن أننا تعادلنا.

ساد صمت قصير، لكن هذه المرّة لم يكن صمت خصمين، بل صمت شخصين اكتشف كل منهما أن الآخر يقف على الحافة نفسها، وإن اختلف الطريق الذي أوصله إليها. فالحافة واحدة دائماً، مهما اختلفت الطرق التي تقود إليها.

ثم قالت فجأة، وقد لمعت في عينيها فكرة لم تكن موجودة قبل دقائق:

ـ في الحقيقة..

نظر إليها يونس باهتمام.

ـ ربما كنت مخطئة في شيء واحد فقط.

عقد حاجبيه:

ـ وهو؟

قالت وهي تثبت نظرها في عينيه:

ـ أنت اخترت الشخص الخطأ لتطلب منه مليون دولار.. بينما يوجد شخص آخر، لو وصلت إليه قبل الشرطة.. فلن تحتاج إلى طلب فدية من أحد أصلًا.

الفصل العاشر

خطة بديلة

ظل يونس يحدّق في وجهها لثوانٍ، وكأنه لم يفهم ما قالته، وقال ببطء:

ـ شخص.. آخر؟

أومأت سوسو برأسها:

ـ نعم.. طليقي.

ارتسمت على وجه يونس ابتسامة ساخرة متعبة:

ـ عدنا إلى البداية. قبل قليل كنتِ تقولين إنكِ مفلسة، والآن تريدين إقناعي أن طليقكِ يملك الملايين؟

هزّت رأسها نافية:

ـ أنا لم أقل إنه يملك الملايين.. بل قلت إنه سرقها.

ساد الصمت، ثم تابعت بصوت خافت، وقد اختفت منه نبرة الفنانة التي تعرف كيف تخاطب الكاميرات، لتحل محلها امرأة تسترجع جرحاً شخصياً:

ـ عندما بدأت أغني قبل سنوات، لم يكن معي سوى صوتي وبعض الأحلام. كل حفلة كنت أحييها، وكل إعلان أصوره، وكل مقابلة أجريها..

كانت أمواله تكبر بقدر ما كنت أتعب أنا. كنت أظن أننا نبني حياتنا معاً، بينما كان هو يبني إمبراطوريته وحده.

تنهدت، ثم أكملت:

ـ لم يكن يثق بالبنوك. كان يقول دائماً إن البنوك أول من يبيعك عندما تتغير الظروف، لذلك كان يحتفظ بالجزء الأكبر من ثروته بعيداً عنها.

رفع يونس رأسه باهتمام:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أن هناك حقيبة سوداء مصفحة، لا يعرف بوجودها أحد تقريباً. لا محاسبه، ولا محاميه، ولا حتى أقرب أصدقائه.

ساد الصمت مجدداً، فقال يونس بحذر:

ـ وما الذي يوجد داخلها؟

ابتسمت ابتسامة صغيرة:

ـ شيء يجعل المليون دولار التي كنت تحلم بها.. تبدو مبلغ مصروف جيب!

نظر إليها زياد بانبهار، بينما أكملت هي:

ـ سبائك ذهبية صغيرة، وألماس غير مسجل، وساعات نادرة، وبعض العملات الذهبية القديمة التي كان يهوى جمعها.

تنحنح يونس وقال وهو يراقب عينيها:

ـ وكيف عرفتِ كل هذا؟

ـ لأنني الشخص الوحيد الذي ساعده في إخفائها.

اقتربت قليلًا من الطاولة:

ـ في إحدى الليالي، قبل سنوات، طلب مني أن أرافقه إلى مزرعته الخاصة خارج المدينة. قال إنه يريد أن يخبئ شيئاً لا يجوز أن يعرف به أحد. كنت أظنها مفاجأة رومانسية.. فإذا بها حفرة تحت الأرض!

ابتسمت بسخرية من نفسها:

ـ أمضينا ساعتين نحمل تلك الحقيبة الثقيلة، ثم دفنّاها داخل غرفة سرية لا يمكن الوصول إليها إلا بطريقة معينة.

رفع يونس حاجبيه:

ـ وهل ما زالت هناك؟

ـ لو لم تكن هناك، لما كنتُ أجلس هنا.

ظل يونس صامتاً. كان يحاول أن يقرأ وجهها، كما كان يقرأ أصوات المتصلين طوال سنوات عمله في الإذاعة؛ يبحث عن ارتجافة تكشف الكذب، أو نظرة تهرب من الحقيقة، لكنه لم يجد شيئاً. قال أخيراً:

ـ ولماذا تساعدينني؟

ابتسمت سوسو، لكن ابتسامتها هذه المرّة كانت باردة:

ـ لا.. لأساعدك.

استغرب.

ـ بل لأساعد نفسي.

ثم أضافت، وقد اشتد صوتها قليلًا:

ـ هل تعرف ما هو أكثر شيء يؤلمني؟ ليس أنه أخذ المال.. بل أنه جعل الناس يظنون أنني أنا من خسرته بسبب طمعي. تركني أبدو في الإعلام امرأة جشعة، بينما كان هو يخرج في البرامج التلفزيونية يتحدث عن الأخلاق والاحترام والأسرة المثالية.

ضحكت ضحكة قصيرة، ثم نظرت إلى يونس مباشرة:

ـ غريب.. أليس كذلك؟

قطب حاجبيه:

ـ ماذا؟

ـ أنت أيضاً كنت تتحدث كل ليلة عن الأسرة المثالية، بينما بيتك كان ينهار. وهو كان يتحدث عن الأخلاق، بينما كان يسرق زوجته بالقانون.

سكتت لحظة، ثم قالت:

ـ يبدو أن الميكروفونات والكاميرات تصنع قديسين أكثر مما تصنعهم الكنائس. فالمنابر الحديثة لا تشترط الطهارة، بل حسن الإلقاء.

لم يجد يونس جواباً، شعر أن المرأة الجالسة أمامه ليست مجرد مغنية استعراضية، بل إنسانة سقطت من المسرح بالطريقة نفسها التي سقط بها هو من خلف الميكروفون.

أخذ نفساً عميقاً، ثم قال:

ـ لنفترض أنني صدقتكِ.. ما الذي يمنعكِ من الهرب بمجرد أن أفك قيودكِ وأوصلكِ إلى هناك؟ لماذا لا تتصلين بالشرطة ببساطة؟

ابتسمت سوسو، وأجابت بهدوء:

ـ لأن الشرطة ستسألني أولًا سؤالًا واحداً.

ـ ما هو؟

ـ "إذا كنتِ تعرفين مكان هذه الثروة منذ سنوات.. فلماذا لم تبلغي عنها؟"

توقفت لحظة، ثم أضافت:

ـ وعندها سأتحول من ضحية إلى شريكة في إخفاء أموال غير مصرح بها. سيجمدون كل شيء، وسأخرج من القضية بلا مال.. وربما بقيود في يديّ بدلًا من الحبل الذي فككته أنت قبل قليل.

رفعت نظرها إليه، وقالت بثقة هادئة:

ـ لذلك يا يونس.. نحن لسنا خصمين بعد الآن.

ثم مدت يدها فوق الطاولة الخشبية، ونظرت إليه نظرة طويلة قبل أن تقول:

ـ نحن شخصان خسر كل واحد منهما حياته بطريقة مختلفة.. ولم يبقَ أمامهما إلا فرصة واحدة، إما أن تضيع، أو تغيّر كل شيء.

ظلّت يد سوسو ممدودة فوق الطاولة، بينما أخذ يونس يحدّق فيها طويلًا. لم يكن ينظر إلى يد امرأة تعرض عليه شراكة، بل إلى آخر مخرج ظهر له بعد أن أوصدت الحياة في وجهه كل الأبواب. راودته رغبة بأن يرفض، أن يعود إلى رشده، أن ينهي هذا الجنون كله ويذهب ليسلّم نفسه، لكنه كان كلما تذكر وجه زياد وهو نائم على الأريكة ليلة أمس، يعود فيتذكر أيضاً أن الوقت لم يعد ملكه، وأن الرجل الذي يملك بضعة أيام فقط لا يحق له أن يتصرف كمن ينتظر سنوات.

رفع رأسه وسألها بهدوء:

ـ وإذا نجحت الخطة.. كيف أعرف أنكِ لن تأخذي الحقيبة وتختفي؟

ابتسمت سوسو ابتسامة خالية من الزينة، وقالت:

ـ وهل أبدو لك امرأة قادرة على الاختفاء؟

ثم أشارت إلى وجهها:

ـ هذا الوجه مطبوع على آلاف اللوحات الإعلانية. حتى لو ارتديتُ نقاباً، سيعرفني نصف المدينة من طريقة مشيي. أما أنت، فكنت أشهر مذيع إذاعي في البلد، والناس تحفظ صوتك أكثر مما تحفظ ملامحك. نحن الاثنان لا نملك رفاهية الهروب. لقد انتهت مرحلة الاختباء بالنسبة إلينا منذ زمن.

ساد الصمت، ثم أضافت بنبرة أكثر جدية:

ـ لكن هناك فرقاً بيننا.

رفع يونس عينيه إليها.

ـ أنت لم يعد لديك ما تخسره.. أما أنا، فما زال عندي شيء أريد استعادته.

ـ مالكِ؟

هزّت رأسها:

ـ كرامتي.

كان وقع الكلمة مختلفاً. شعر يونس أن المرأة التي أمامه لم تعد تلك المغنية التي يراها الناس ترقص على المسرح، بل إنسانة جرّدتها الحياة من كل شيء، ولم يبقَ لها سوى رغبتها في الانتقام ممن سلبها حياتها. فحين يخسر المرء كل شيء، تصبح الكرامة آخر ممتلكاته، وأولى معاركه.

قطع زياد هذا الصمت، وقد بدا أنه لم يعد يحتمل الانتظار أكثر:

ـ حسناً.. لنفترض أنكما اتفقتما. ماذا سنفعل الآن؟

التفتت سوسو إليه وقالت بهدوء:

ـ أولًا.. كلمة "سنفعل" تعني أنك أصبحت داخل الموضوع.

ابتسم الفتى بحماس طفولي:

ـ طبعاً أنا داخل الموضوع!

تنحنحت وقالت بجدية مصطنعة:

ـ لا، أنت خارج الموضوع.

هبطت ابتسامته فجأة:

ـ لماذا؟

ـ لأنك في السابعة عشرة من عمرك، وإذا قبضت علينا الشرطة معك فسأصبح أنا متهمة بخطف قاصر أيضاً!

قال معترضاً:

ـ أنا لست قاصراً.. بقي لي أشهر قليلة وأصبح في الثامنة عشرة!

ابتسمت ساخرة:

ـ أخبر القاضي بذلك، ربما يحتفل بعيد ميلادك داخل المحكمة.

وقبل أن يجيب، تدخل يونس لأول مرة منذ دقائق:

ـ سوسو محقة. لن أسمح لك بالمشاركة.

نظر زياد إلى أبيه غير مصدّق:

ـ بعد كل ما جرى؟ تريدان تركي مع جدّي في البيت؟

ـ نعم.

ـ مستحيل!

ـ هذا ليس نقاشاً.

ساد صمت ثقيل، قبل أن يتنهد زياد ويجلس على الأريكة مستسلماً، ثم قال بامتعاض:

ـ على الأقل.. إذا سرقتم الذهب، لا تنسوا أنني كنت أول من اكتشف مكان المخطوفة!

لم يتمالك يونس نفسه، فضحك لأول مرة منذ ساعات، بينما ابتسمت سوسو وهي تهز رأسها.

وفي تلك اللحظة، دوّى صوت العصا الخشبية وهي تضرب أرضية الصالة. التفت الثلاثة معاً؛ كان الجد قد وقف بينهم، مستنداً إلى عصاه، يرمقهم بنظرة القائد الذي حضر متأخراً إلى اجتماع مصيري.

قال بصوت حازم:

ـ انتهيتم من تقسيم العمل؟

نظروا إليه باستغراب. أشار بعصاه إلى يونس:

ـ أنت تقود السيارة.

ثم أشار إلى سوسو:

ـ وأنتِ تحملين الطعام.

ثم نظر إلى زياد:

ـ وأنت.. لا تبتعد عن أمك، فالطريق إلى المزرعة مليء باللصوص والكلاب!

ساد صمت قصير، قبل أن ينفجر الثلاثة بالضحك دفعة واحدة. حتى سوسو، التي بدأت نهارها مربوطة إلى كرسي، وجدت نفسها تضحك وسط أشخاص كان يفترض أن تكرههم. أما الجد، فظل ينظر إليهم باستغراب، غير قادر على فهم سبب هذا الضحك، فهز كتفيه وتمتم بضيق:

ـ جيلٌ لا يعرف معنى المسؤولية..

خفّت الضحكات تدريجياً، لكن شيئاً ما كان قد تغيّر في تلك الغرفة القديمة. قبل ساعات فقط، كان يونس خاطفاً، وكانت سوسو ضحية، وكان زياد شاهداً على جريمة، وكان الجد يعيش في عالمٍ لا يشبه عالمهم. أما الآن، فقد أصبح الأربعة يقفون على الحافة نفسها، يجمعهم اليأس أكثر مما يجمعهم أي شيء آخر.

نظر يونس إلى ساعته، ثم قال بصوت حاسم:

ـ ليس لدينا وقت. كل ساعة تمرّ تعني أن صحتي تقترب من النهاية، وقد يكتشف الناس اختفاءكِ في أي لحظة. إذا كانت هذه الحقيبة موجودة حقاً.. فسنذهب إليها الليلة.

أومأت سوسو موافقة، لكن ملامحها بقيت متحفزة، وكأنها تدرك أن أصعب ما في الخطة لم يبدأ بعد. أما زياد، فكان ينظر إلى الاثنين بعينين تلمعان بالحماس، يشعر أنه دخل مغامرة كان يظن أنها لا توجد إلا في الأفلام.

وفي الزاوية، جلس الجد يراقبهم بصمت، ثم قال فجأة وهو يبتسم ابتسامة واثقة:

ـ لا تقلقوا.. إذا اعترضكم أحد في الطريق، أخبروني فقط.. فأنا أعرف المختار!

لم يعلّق أحد. لكنهم جميعاً خرجوا من المكان بعد دقائق، وكل واحد منهم يحمل في داخله سبباً مختلفاً للمضي قدماً: كان يونس يسابق الموت. وكانت سوسو تسابق الهزيمة. وكان زياد يسابق فضوله. أما الجد.. فكان يسابق ذاكرةً لم تعد تتذكر إلى أين تمضي، لكنها ما زالت تصرّ على أن تكون جزءاً من الرحلة! فبعض الذاكرة، حتى وهي تتلاشى، ترفض أن تُستبعد من آخر الفصول.

الفصل الحادي عشر

سيناريو على هامش السطو

لم يكن الليل بارداً بقدر ما كان متوتراً.

توقفت سيارة يونس القديمة على مسافة غير بعيدة من سور المزرعة، بينما ظل محركها يصدر طقطقة خافتة تشبه تنفس رجلٍ عجوز يرفض أن ينطفئ. خلف الزجاج الأمامي، ارتفعت البوابة الحديدية السوداء شامخةً تحت أضواء كاشفة جعلتها تبدو كمدخلٍ إلى قلعة لا إلى مزرعة خاصة، وعلى امتداد السور، كانت الأشجار المصطفة تلقي ظلالًا كثيفة تخفي أكثر مما تكشف، فيما كانت كاميرات المراقبة تتحرك ببطء فوق أعمدتها كعيونٍ لا تنام.

ساد داخل السيارة صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى صوت أنفاس الركاب، والنقرات السريعة التي راحت تتوالى من هاتف زياد. كان الفتى منحنياً فوق الشاشة، يهمس لتطبيق الذكاء الاصطناعي بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

ـ لدينا حارسان عند البوابة.. وكاميرات مراقبة.. ورجلٌ مسنّ سيتظاهر بالإغماء.. ما نسبة نجاح الخطة؟

لم يتأخر الرد؛ إذ خرج الصوت الإلكتروني بارداً، خالياً من أي انفعال:

ـ بناءً على المعطيات الحالية، تبلغ احتمالية فشل العملية تسعين بالمئة. يُنصح بالانسحاب فوراً.

نظر زياد إلى الهاتف باشمئزاز ثم أغلق الشاشة وهو يتمتم:

ـ أغلق فمك.. أنت لا تفهم شيئاً في الدراما.

التفت يونس إليه رغم توتره، وكادت ابتسامة صغيرة ترتسم على وجهه لكنها ماتت قبل أن تولد. أدار رأسه نحو والده الجالس في المقعد الخلفي؛ كان الجد يرتدي معطفه الصوفي القديم وقد أحكم إغلاق أزراره بعناية، بينما بدا وجهه هادئاً على نحوٍ يثير الريبة. لم يكن فيه أثر لذلك الشرود الذي لازم ذاكرته طوال الأيام الماضية، بل كانت عيناه تلمعان بثقة غريبة كأن الرجل يستعد لدخول موعد يعرفه جيداً.

قال يونس وهو يحاول أن يخفي اضطرابه:

ـ يا أبي.. اسمعني. الكاميرات في كل مكان، والحارسان لن يسمحا لأحد بالدخول بسهولة. أنت ستؤدي دور رجلٍ أصابته نوبة مفاجئة، وسوسو المتنكرة بزي الفلاحة ستطلب منهما النجدة. فقط.. افعل ما اتفقنا عليه ولا تضف شيئاً من عندك.

اعتدل الجد في جلسته ونظر إلى ابنه باستنكار خفيف، ثم قال بنبرة امتزج فيها الوقار بشيءٍ من الكبرياء القديم:

ـ اطمئن.. السينما تجري في دمي، والممثل الحقيقي لا ينسى دوره.

ثم صمت لحظة وأضاف بثقة أربكت الجميع:

ـ إلا إذا اضطر إلى الارتجال.

تبادل يونس وزياد نظرة خاطفة؛ كانت هذه الجملة وحدها كافية لرفع نبض قلبيهما.

أما سوسو، فكانت تراقب وجهها في المرآة الصغيرة المثبتة في حاجب الشمس بالسيارة. لم تكن تضيف شيئاً إلى مكياجها الفلاحي بقدر ما كانت تؤجل مواجهة خوفها؛ مررت الكحل العربي على عينيها بحركة بطيئة، ورسمت وشماً صغيراً على ذقنها كي لا يتعرف الحراس على هويتها، ثم أعادت الغطاء إلى قلم الكحل وأغلقته بحزم، ثم التفتت نحو يونس وقالت بصوت منخفض:

ـ هل ما زلت تحفظ الطريق؟

أومأ برأسه:

ـ الملحق الخلفي.. خلف لوحة الصيد.. والغرفة السرية داخل الجدار.

قالت وهي تثبت نظرها في عينيه:

ـ ممتاز. بمجرد أن ينشغل الحارسان سيكون أمامكما أقل من عشر دقائق، فبعدها ستبدأ الكاميرات الداخلية بإرسال تنبيه تلقائي إذا لم تلتقط حركة عند البوابة.

قبض يونس على المقود بقوة. كان يشعر بثقلٍ غريب في صدره، لا يعرف إن كان سببه المرض أم الخوف؛ فمنذ ساعات فقط كان رجلًا يعمل في شركة تأمين ويقدم برنامجاً إذاعياً عن الأسرة السعيدة، وها هو الآن يستعد لاقتحام مزرعة وسرقة حقيبة ألماس، برفقة مغنية استعراضية وابنه المراهق ووالدٍ مصاب بالزهايمر! بدت الفكرة نفسها سخيفة إلى حدٍ جعل عقله يرفض تصديقها، لكنه لم يعد يملك ترف العودة. فبعض القرارات لا تُتّخذ لأنها معقولة، بل لأن كل الطرق الأخرى أُغلقت من خلفها.

قال بهدوء:

ـ حان الوقت.

فتحت سوسو الباب ونزلت أولًا، ثم أمسكت بذراع الجد برفق. وما إن وطئت قدماهما الطريق المؤدي إلى البوابة حتى تبدلت ملامحهما تماماً؛ استقامت سوسو في مشيتها وراحت تتظاهر بلهفة امرأة مذعورة، بينما أخذ الجد يجر قدميه ببطء متكئاً عليها كأن الحياة تنسحب من جسده مع كل خطوة.

راقبهما يونس حتى ابتلعهما الضوء الأبيض المنبعث من كشافات البوابة، ثم همس لزياد:

ـ الآن..

انزلقا معاً بمحاذاة السور مستفيدين من ظلال الأشجار، بينما كانت دقات قلبيهما أعلى من وقع أقدامهما.

ما إن اقتربت سوسو من البوابة حتى خرج أحد الحارسين من الكشك الزجاجي، وقد انعكس ضوء الكشافات على سترته السوداء. كانت ملامحه جامدة، وعيناه تتحركان بحذر بين المرأة والرجل العجوز الذي يكاد ينهار فوق كتفها. رفع الحارس يده بإشارة حاسمة وقال:

ـ ممنوع الوقوف هنا.. ابتعدوا عن البوابة، هذه ملكية خاصة.

لهثت سوسو وهي تتظاهر بأنها تكاد تبكي، ثم أمسكت بذراع الحارس بكلتا يديها وكأنها تتمسك بآخر قشة نجاة وقالت بلهجة فلاحية:

ـ أرجوك.. ساعدني فقط! جدي يختنق ولا أستطيع حمله وحدي. كنت في طريقي إلى المستشفى لكن السيارة تعطلت، ولم أجد أحداً في هذا الطريق غيركما.

رمقها الحارس الثاني بنظرة متفحصة، ثم تبادل الحارسان نظرة سريعة، وقال الأول وهو يقطب جبينه:

ـ وجهك مألوف.. من أنتِ؟

تنهدت بمرارة مقصودة:

ـ أنا بائعة حليب متجولة، ولا بد أن تكون قد لمحتني في مكان ما.. ولكن هل هذا وقت جيد للتعارف؟ الرجل يموت!

التفت الحارس الثاني نحو العجوز، فرأى الجد يترنح بعناية شديدة، يفتح عينيه تارة ويغلقهما تارة أخرى، بينما كانت يده ترتجف فوق صدره. قال الحارس الأول ببرود لم يخلُ من الريبة:

ـ سنستدعي سيارة إسعاف.

ثم أخرج هاتفه من جيبه وضغط على الشاشة استعداداً لإجراء اتصال.

في الجهة الأخرى من السور، كان يونس يتابع المشهد من خلال فتحة ضيقة بين الأغصان، وما إن لمح الهاتف حتى انقبض قلبه. همس بصوت متقطع:

ـ انتهينا..

نظر إليه زياد بقلق وسأله:

ـ لماذا؟

ـ إذا أجرى الاتصال فسيعرف صاحب المزرعة أن سوسو هنا، وستنهار الخطة كلها.

ساد صمت ثقيل، وللحظة قصيرة بدا أن كل شيء يتداعى أمام أعينهم. لكن قبل أن يلامس إصبع الحارس زر الاتصال، حدث ما لم يكن في الحسبان؛ إذ أطلق الجد شهقة طويلة خرجت من أعماق صدره، ثم ترنح بجسده إلى الأمام كأن قدميه فقدتا القدرة على حمله. لم يكن سقوطاً عشوائياً، بل سقوطاً بالغ الدقة، إذ هوى بكل ثقله نحو الحارس الأول وتشبث بسترته في اللحظة الأخيرة، فاختل توازن الرجل تماماً. طار الهاتف من يده وارتطم بالأرض الإسمنتية بقوة، ثم ارتد عدة مرات قبل أن تتشقق شاشته إلى خيوط بيضاء متداخلة.

ـ انتبه!

صرخ الحارس الثاني وهو يهرع لإسناد زميله. أما الجد فقد واصل أداءه بإتقان مذهل، وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة بينما راحت يداه تتشبثان بالحارس وكأنهما ترفضان الإفلات منه:

ـ زلفى.. لا تتركيني.. أقسم أنني لم أبع البقرة..

نظر الحارسان إلى بعضهما في حيرة، وقال أحدهما:

ـ الرجل يهذي!

وأضاف الآخر:

ـ أمسكه.. لا تدعه يسقط!

ازداد الارتباك عند البوابة وتحولت الأنظار كلها إلى العجوز الذي بدا وكأنه يحتضر فعلًا. في تلك اللحظة، كان يونس وزياد قد وصلا إلى الباب الخلفي للمزرعة؛ كان نصف مفتوح كما وصفت سوسو تماماً. دفعه يونس ببطء شديد حتى لا يصدر صريراً، ثم التفت إلى ابنه وهمس:

ـ من الآن.. لا تتكلم.

أومأ زياد برأسه، ثم انزلق الاثنان إلى الداخل بينما بقيت الفوضى عند البوابة تبتلع انتباه الحارسين بالكامل.

امتد أمامهما ممر ضيق تحفّه أشجار السرو، وكانت الحصى الصغيرة تحت أقدامهما تهدد بكشف وجودهما مع كل خطوة. سار يونس بحذر شديد، متوقفاً كل بضع ثوانٍ ليستمع إلى المكان، فلم يكن يسمع سوى صدى الأصوات البعيدة القادمة من البوابة وصفير الريح وهي تمر بين الأغصان. بعد عشرات الأمتار، ظهر الملحق الحجري الصغير الذي وصفته سوسو، فتوقف يونس ونظر إلى ابنه ثم قال بصوت يكاد لا يُسمع:

ـ بدأ الجزء الذي لا يحتمل أي خطأ.

كان الملحق الحجري غارقاً في ظلمة كثيفة لا يبددها سوى خيط باهت من الضوء المتسلل عبر نافذة صغيرة عالية تراكم الغبار على زجاجها منذ سنوات. بدا المكان مهجوراً للوهلة الأولى، لكن النظام الصارم الذي رُتبت به الأدوات والرفوف أوحى بأن أحداً ما لا يزال يعتني به بعناية شديدة.

أغلق يونس الباب خلفه برفق، ثم بقي واقفاً لثوانٍ يصغي إلى الصمت. كان يسمع خفقان قلبه بوضوح، حتى خُيّل إليه أن صوته وحده كفيل بكشف مكانهما.

همس زياد:

ـ هل أنت بخير يا بابا؟

أومأ يونس برأسه دون أن يجيب. لم يشأ أن يعترف بأن الألم الذي يسكن صدره منذ أيام بدأ يشتدّ، وأن أنفاسه لم تعد تستجيب له كما كانت قبل أشهر. لم يكن هذا هو الوقت المناسب ليتذكر السرطان. أشار بيده نحو الجدار المقابل:

ـ هناك.. لوحة الصيد.

تقدما بخطوات حذرة حتى وقفا أمام لوحة زيتية كبيرة تُظهر صياداً يحمل بندقية، وإلى جواره كلب يحدق في بحيرة ساكنة. بدت اللوحة عادية، لكن يونس تذكر وصف سوسو بدقة، فوضع يديه على إطارها الخشبي ثم رفعها بحذر، فظهر وراءها تجويف مستطيل داخل الجدار. تبادل الأب وابنه نظرة سريعة، ثم مد زياد يده إلى الداخل فارتطمت أصابعه بسطح جلدي بارد، واتسعت عيناه:

ـ وجدتها..

أخرج الحقيبة ببطء، لكنها كادت تسقط من بين يديه لشدة ثقلها:

ـ يا إلهي.. كأنها مليئة بالحجارة!

أمسكها يونس من الجهة الأخرى وساعده على إنزالها إلى الأرض. كانت حقيبة سوداء مصفحة خالية من أي شعار أو علامة، لكن وزنها وحده كان كفيلًا بأن يؤكد أنها ليست حقيبة عادية. تطلع الأب إلى ابنه ثم قال بابتسامة لم يذق مثلها منذ زمن:

ـ يبدو أن سوسو لم تكن تكذب.

وقبل أن يجيب زياد، دوّى صوت مكتوم في الخارج فتجمّد الاثنان في مكانيهما.

دوّى صوت خطوات ثقيلة تقترب شيئاً فشيئاً من باب الملحق. ارتسمت على وجه يونس نظرة حادة، ثم رفع سبابته طالباً من ابنه الصمت. اقتربت الخطوات أكثر، ثم توقف صاحبها أمام الباب مباشرة. حبس الاثنان أنفاسهما، وسمعا صوت مفاتيح معدنية تتصادم، أعقبه احتكاك خفيف بمقبض الباب.

همس زياد بالكاد محركاً شفتيه:

ـ أحدهم هنا..

لم يرد يونس؛ كانت عيناه تدوران في أرجاء الغرفة بسرعة باحثتين عن أي مكان يمكن أن يختبئا فيه، لكن الملحق كان شبه خالٍ، لا يحتوي إلا على رفوف منخفضة وصناديق خشبية لا تكفي لإخفاء طفل، فكيف برجلين؟

صدر صوت خافت.. ثم بدأ المقبض يدور ببطء. شعر زياد أن الدم تجمد في عروقه، أما يونس فقبض على يد ابنه بقوة وجذبه إلى الزاوية المظلمة خلف الباب مباشرة، بحيث يصبح الداخل إلى الغرفة مضطراً إلى التقدم خطوتين قبل أن يتمكن من رؤيتهما.

انفتح الباب تدريجياً واندفع شعاع قوي من مصباح يدوي أخذ يمسح أرضية الملحق ببطء، ثم ارتفع نحو الرفوف والجدران. كان الحارس يقف على العتبة، يمسك الكشاف بيد، ويضع الأخرى على جهاز الاتصال المثبت عند كتفه، وتمتم بضيق:

ـ غريب.. كنت متأكداً أنني سمعت حركة هنا.

تقدم خطوة إلى الداخل.. ثم ثانية.. وصار يفصل بينه وبين يونس أقل من مترين. شعر زياد بأن قلبه يكاد يقفز من صدره، بينما كان يونس يحبس أنفاسه بكل ما بقي لديه من قوة. رفع الحارس الكشاف قليلًا.. ولم يبقَ سوى الزاوية الأخيرة التي يختبئ فيها يونس وزياد.

كانت المسافة بينهما لا تتجاوز خطوات قليلة، حتى إن يونس استطاع أن يسمع صوت أنفاس الرجل الثقيلة وهو يتقدم داخل الملحق. ضغط زياد على مقبض الحقيبة بكلتا يديه حتى كادت أصابعه تؤلمه، أما يونس فكان يشعر بأن دقات قلبه أصبحت أعلى من أي صوت آخر في المكان. ولأول مرة منذ عرف بمرضه، لم يكن يخشى الموت ولا السجن.. بل كان مرعوباً من فكرة أن يُقبض عليهما، فيسوق زياد إلى مصيرٍ لا يد له فيه، ويُصاب بأذى بسبب طيشه. فالخوف على من نحب أعمق دائماً من الخوف على أنفسنا، لأنه لا ينتهي بانتهائنا.

تقدّم الحارس خطوة ثالثة وارتفع ضوء الكشاف شيئاً فشيئاً..

ثم..

دوّى في الخارج صوت بوق سيارة متواصل، حاد ومزعج، مزّق سكون المزرعة كصفارة إنذار لا تتوقف!

ارتبك الحارس والتفت غريزياً نحو الباب. تبع البوق صراخ متداخل عند البوابة، ثم صوت الجد يعلو بغضب لا يشبه رجلًا كان يحتضر قبل دقائق:

ـ قلت لك إنني لن أبيع الأرض! هذه أرض أبي وأجدادي.. ابعد يدك عني أيها اللص!

ثم جاء صوت سوسو وهي تصرخ بمهارة ممثلة تعرف تماماً متى ترفع نبرة صوتها:

ـ النجدة! سيقتل جدي! أين أنتم؟!

تردد الحارس لحظة، ثم ضغط زر جهاز الاتصال المعلّق على كتفه:

ـ ماذا يحدث عند البوابة؟

لم تصله إجابة واضحة، بل اختلطت في السماعة أصوات الصراخ مع تشويش مزعج. قطب حاجبيه وألقى نظرة أخيرة داخل الملحق لم يرَ فيها شيئاً، فاستدار على عجل وانطلق راكضاً نحو الخارج.

وما إن ابتعدت خطواته حتى تنفس يونس بعمق كأن رئتيه عادتا للعمل بعد انقطاع طويل، وهمس:

ـ هيا.. الآن.

التقطا الحقيبة معاً وخرجا من الملحق بخفة مستغلين انشغال الجميع عند البوابة. كانا يركضان بمحاذاة الأشجار بينما اختلطت أنفاسهما بصوت الريح التي راحت تعبث بأغصان السرو، وما إن وصلا إلى الباب الخلفي حتى

لمحا السيارة القديمة تنتظرهما على جانب الطريق ومحركها ما يزال يعمل.

كان المشهد في الداخل سريالياً بكل معنى الكلمة؛ جلست سوسو خلف المقود وقد التصق شعرها بجبينها من شدة التوتر، بينما كان الجد يحتل المقعد الأمامي بكل هيبة واضعاً كفه بثبات فوق مركز المقود، ضاغطاً على البوق بلا انقطاع كأن الضجيج جزء أصيل من الخطة!

فتح زياد الباب الخلفي وقفز إلى الداخل، ثم تبعه يونس وهو يحتضن الحقيبة بكلتا ذراعيه. صرخت سوسو:

ـ أمسكوا بمقاعدكم!

وانطلقت السيارة دفعة واحدة، فصرخت عجلاتها فوق الإسفلت قبل أن تبتلعها عتمة الطريق. ظل أحد الحارسين يركض خلفها عشرات الأمتار وهو يلوّح بيديه ويصرخ، لكن السيارة كانت قد تجاوزت المنعطف الأول، ثم الثاني، حتى اختفت أضواؤها تماماً بين الأشجار.

ساد الصمت داخل السيارة لثوانٍ طويلة لم يقطعه سوى صوت المحرك المتعب؛ كان الجميع يلهث، ويونس يستند برأسه إلى المقعد يحاول التقاط أنفاسه، وزياد يحتضن الحقيبة كأنها طفل يخشى أن يُنتزع منه، أما سوسو فكانت تشد على المقود بقوة وعيناها لا تفارقان الطريق.

وأخيراً، كسر زياد الصمت ونظر إلى الجد ثم قال بإعجاب صادق:

ـ جدي.. كيف خطر في بالك أن تضغط على البوق في تلك اللحظة؟

رفع العجوز كتفيه باستغراب وكأن السؤال بديهي، ثم قال بثقة هادئة:

ـ لأن المشهد كان يوشك أن يبرد.

نظر الثلاثة إليه دون أن يفهموا، فأكمل وهو يبتسم ابتسامة صغيرة:

ـ أنا من عشاق مشاهدة الأفلام، وألاحظ دائماً أن المخرج الذكي يعرف متى يصنع الفوضى قبل أن يملّ المشاهد.. شعرت أن الوقت حان لمشهد الفوضى، فضغطت على البوق.

انفجر زياد ضاحكاً، ثم تبعته سوسو، ولم تمضِ لحظات حتى وجد يونس نفسه يشاركهما الضحك رغم التعب الذي كان ينهش جسده. ضحك الأربعة طويلًا، لا لأن ما حدث كان مضحكاً بل لأنهم نجوا لأول مرة منذ بدأت هذه المغامرة العبثية!

لكن الضحكات ما لبثت أن خفتت حين وقعت عينا يونس على الحقيبة السوداء التي يحتضنها زياد. مد يده إليها ببطء وتحسس سطحها الجلدي، ثم تبادل نظرة صامتة مع سوسو؛ كانت أصعب مرحلة قد انتهت.. أما أخطر مرحلة فلم تبدأ بعد. فالنجاة من خطر واحد لا تعني الأمان، بل تعني فقط أن القصة لم تنتهِ بعد.

الفصل الثاني عشر

طحين السبانخ

كان بيت الجدّ يلوذ بصمتٍ ثقيل عندما أُغلق بابه الخشبي خلف الأربعة. تلاشى هدير السيارة في الخارج شيئاً فشيئاً، ولم يبقَ في الردهة سوى أنفاسٍ متلاحقة، ورائحة الرطوبة العالقة في الجدران، وقد اختلطت برائحة العرق والجلد القديم المنبعثة من الحقيبة السوداء.

تقدّم زياد نحو الطاولة الخشبية المتهالكة في منتصف الصالة، ووضع الحقيبة فوقها بكلتا يديه. ارتطمت بالطاولة ارتطاماً مكتوماً، فتراقص الغبار في الهواء قبل أن يستقرّ تحت ضوء المصباح الأصفر الذي لم يتوقّف عن الارتجاف، وكأنه هو الآخر ينتظر ما سيخرج من جوفها.

أسندت سوسو ظهرها إلى الجدار، ثم نزعت شال الفلاّحة الذي أخفى ملامحها طوال العملية، فانساب شعرها الأشعث فوق كتفيها. كانت تحدّق في الحقيبة بعينين يختلط فيهما الجشع بالارتياح، كأنها ترى أمامها نهاية سنوات طويلة من الذلّ والخسارة.

مسح يونس العرق عن جبينه بكفّ مرتجفة، ثم قال بصوت حاول أن يجعله ثابتاً:

ـ الآن.. ننهي كل شيء.

التفت إلى سوسو، وأضاف بنبرة لا تحتمل المساومة:

ـ كما اتفقنا. مليون دولار من قيمة الألماس هي حصة زياد، أما الباقي فهو لكِ. بعد الليلة، ينتهي كل شيء بيننا. تختفين من حياتنا تماماً، ولا يبقى بيننا اتصال ولا ذكرى.

أومأت سوسو برأسها في هدوء، وقالت وهي تمرّر أصابعها فوق حافة الطاولة:

ـ صدّقني.. لا أحد يريد الاختفاء أكثر منّي. هذه الحقيبة هي آخر فرصة لأستعيد حياتي.

لم يعلّق زياد، لكنه شعر بانقباضٍ في صدره. لم يكن يشغله نصيبه من الألماس بقدر ما كان يزعجه أن تنتهي هذه الشراكة الغريبة بهذه السرعة، وأن تختفي سوسو من حياته كما ظهرت فيها فجأة.

جلس يونس إلى جوار ابنه، وأدرك، للمرة الأولى منذ عرف بمرضه، أن أكثر ما يخشاه لم يعد الموت نفسه، بل أن يرحل قبل أن يرتّب كل ورقة صغيرة من إرثه الهزيل. فالخوف من الموت يتضاءل أمام الخوف من أن نرحل تاركين فوضى يرثها من نحب.

وضع يده فوق يد زياد، وضغط عليها برفق. كانت كفّه باردة، لكن دفأها وصل إلى قلب الفتى.

قال بصوت خفيض أثقله التعب لا الندم هذه المرة:

ـ لن أكرّر عليك ما قلته الليلة الماضية.. فالكلمات الصادقة لا تحتمل التكرار، وأنت سمعتها مني كاملة. لكن دعني أضيف شيئاً عملياً، لأنه بعد الليلة قد لا تسنح لي فرصة أخرى.

ظلّ زياد ينظر إليه دون أن يقاطعه. تابع يونس:

ـ عندما تأخذ نصيبك، لا تتصرّف بطيش. لا تشترِ سيارة فاخرة، ولا بيتاً كبيراً، ولا تدع أحداً يشعر بأن المال هبط عليك فجأة. في شركة التأمين رجل أثق به منذ سنوات طويلة. سأترك لديه ظرفاً باسمك، فيه كل ما تحتاج إلى معرفته: أسماء التجار الشرعيين، والطريقة التي تبيع بها الأحجار تدريجياً، وكيف تبدأ حياتك من دون أن تثير أي شبهة.

صمت لحظة، ثم ابتسم ابتسامة متعبة وقال:

ـ أريدك أن تعيش.. لا أن تهرب طوال عمرك كما فعل أبوك.

لم يتمالك زياد نفسه، فاحتضن والده بقوة وهمس بالقرب من أذنه:

ـ أعدك يا بابا.. لن أخذلك.

أغمض يونس عينيه لثوانٍ. كان ذلك العناق وحده يساوي عمراً كاملًا من السنوات التي ضاعت بينهما. ثم التفت نحو الحقيبة، وفتح أحد أدراج خزانة الملابس القديمة في الغرفة المجاورة، وأخرج منه إزميلًا قديماً ومطرقة صدئة، ووضعهما على الطاولة. كانت يداه ترتجفان وهو يثبّت الإزميل فوق القفل الفولاذي.

رفع المطرقة، وهوى بها فوق رأس الإزميل. لم ينكسر القفل من الضربة الأولى، ولا اهتزّ كثيراً من الثانية، لكن الثالثة كانت أعنف من سابقتيها، فانشطر القفل أخيراً، وانفرج الغطاء المعدني ببطء.

حبس الأربعة أنفاسهم.

كان الجميع ينتظر انعكاس بريق الألماس، أو لمعان سبائك الذهب، أو حتى أكياس المخمل التي تُحفظ فيها الأحجار الكريمة والعملات النادرة.

لكن شيئاً من ذلك لم يظهر.

كانت الحقيبة ممتلئة حتى آخرها بأكياس بلاستيكية شفافة، تحوي مسحوقاً أبيض ناعماً، مرصوصة بعناية كأنها صناديق مجوهرات.

ساد صمت ثقيل، بدا أطول من الليل كله. اتّسعت عينا سوسو حتى بدتا وكأنهما لن تعودا إلى حجمهما الطبيعي، بينما شعر يونس بأن الغرفة كلها تدور من حوله. أما المطرقة، فانزلقت من بين أصابعه وسقطت على الأرض بصوتٍ أجوف.

مدّ زياد يداً مرتجفة، وأخرج أحد الأكياس. قرأ الملصق الصغير المثبّت عليه بلغة أجنبية لم يفهمها، ثم ابتلع ريقه بصعوبة. رفع رأسه نحو والده، وهمس:

ـ بابا..

توقّف لحظة، كأنه يتمنّى أن يكون قد أخطأ في القراءة، ثم قال:

ـ هذا ليس ألماساً.. هذا كوكايين.

ترددت الكلمة في أرجاء الغرفة كأنها طلقة ارتدّت عن الجدران. شعر يونس بأن ساقيه لم تعودا تسندانه. لم تكن هذه خيبة أمل فحسب، بل انهياراً كاملًا للخطة التي خاطر من أجلها بحياته؛ كان يظنّ أنه سيترك لابنه ثروة تغيّر مستقبله، فإذا به يقف أمام شحنة مخدرات تكفي

لإرسالهما معاً إلى السجن بقية العمر. فبعض الخيبات لا تكسر الأمل فقط، بل تعيد كتابة معنى المخاطرة من أساسه.

استدار نحو سوسو بعينين تقدحان غضباً، وقال بصوت مبحوح:

ـ ما هذا؟! أين الألماس؟ أين الذهب؟! هل جررتِنا إلى سرقة مخدرات تخصّ عصابة؟

أسرعت سوسو نحو الحقيبة، وراحت تقلّب الأكياس بعصبية، حتى تناثر بعضها فوق الطاولة، وقالت وهي تكاد تبكي:

ـ أقسم لك أنني لا أفهم شيئاً! هذه هي الخزنة نفسها، وهذا هو المكان نفسه. كان يحتفظ فيها بالألماس والذهب. لا بدّ أنه نقلها في الأيام الأخيرة، واستبدلها بهذه الشحنة.. أقسم أنني لم أكن أعلم.

تراجع زياد خطوتين، وأسند ظهره إلى الحائط، ثم مرّر يديه في شعره وهو يتمتم بمرارة:

ـ يا لها من ليلة.. خرجنا لنسرق ألماساً، فعُدنا بتجارة مخدرات!

لم يردّ أحد. كان الثلاثة ينظرون إلى الحقيبة كما لو كانت قنبلة جاهزة للانفجار.

وفي تلك اللحظة، انفتح باب غرفة النوم المجاورة ببطء، وخرج الجدّ بخطوات هادئة، مرتدياً منامته الصوفية القديمة، يفرك عينيه بنعاس، ثم توقّف أمام الطاولة ونظر إلى الأكياس البيضاء في صمت. اقترب أكثر، ومدّ سبّابته داخل أحد الأكياس، وأخذ قليلًا من المسحوق، ثم فركه بين إصبعيه متأمّلًا قوامه، كما يفعل خبّازٌ خبير يختبر جودة الطحين.

تسمّرت عيون الثلاثة عليه، ولم يجرؤ أحد على منعه.

رفع الجدّ رأسه أخيراً، والتفت إلى سوسو بابتسامة أبوية مطمئنة، ثم ربّت على كتفها قائلًا بكل جدية:

ـ يا ابنتي.. بما أنكِ جهّزتِ الطحين، حضّري لنا صينية فطائر بالسبانخ.. لقد تأخّر العشاء كثيراً.

ساد صمت قصير، ثم تبادل الثلاثة النظرات: يونس إلى زياد، وزياد إلى سوسو. أما سوسو، فظلّت تحدّق في الجدّ بذهول، قبل أن تنفجر ضاحكة ضحكة هستيرية، بينما أدرك الثلاثة، في اللحظة نفسها، أن مصيبتهم الجديدة كانت أكبر بكثير من أن تُحلّ.. حتى بفطائر السبانخ. فحين تنهار كل الخطط دفعة واحدة، يبقى العبث وحده قادراً على أن يجعلها تُحتمل.

الفصل الثالث عشر

الابتزاز بالصدفة

لم يكن رنين جرس الباب هذه المرة يشبه ذلك الرنين المألوف الذي اعتاد عليه البيت القديم، بل جاء متلاحقاً وعنيفاً، كأنه قبضة رجل أمن يعلن بداية مداهمة لا زيارة عابرة. دوّى الصوت في أرجاء الشقة، فتجمّد الثلاثة حول الحقيبة المفتوحة، وشعر كل واحد منهم بأن الهواء قد انقطع فجأة عن الغرفة.

أسرع زياد بخطوات حذرة نحو العين السحرية، وألقى نظرة خاطفة، ثم ارتدّ إلى الخلف وقد شحب وجهه حتى كاد يفقد لونه، وهمس بصوت مخنوق:

ـ أمي.. إنها على الباب.

لم يمنح يونس نفسه فرصة للتفكير. منذ أن عرف أن أيامه باتت معدودة، لم يعد يخشى شيئاً إلا أن ينهار كل ما فعله قبل أن يحقّق غايته الأخيرة. اندفع بسرعة لم يعهدها في جسده المنهك، وأمسك بذراع سوسو، ثم جرّ الحقيبة الثقيلة إلى غرفة والدته الراحلة.

فتح خزانة الملابس الخشبية التي ما زالت تحتفظ بفساتين زلفى كما تركتها قبل سنوات، وكانت رائحة النفتالين تعبق منها كأن الزمن لم يجرؤ على الاقتراب. دفع سوسو إلى الداخل بين الثياب المعلّقة، ووضع الحقيبة عند قدميها، ثم أغلق باب الخزانة بإحكام، قبل أن يهرول نحو المدخل ويفتح الباب.

دخلت لمياء كالإعصار. كانت ملامحها شاحبة من السهر والغضب، وشعرها يفلت من ترتيبٍ حاولت عبثاً الحفاظ عليه، بينما كانت عيناها تقدحان شرراً وهي تبحث عن زياد قبل أي شيء آخر.

ما إن وقعت عيناها على يونس حتى اندفعت نحوه، وكأن كل ما كتمته منذ ليلة الطلاق انفجر دفعة واحدة:

ـ هل انتهيت من استعراضاتك؟! لم يكفِك أن تطلّقني أمام البلد كلها، حتى جعلتني مادة للشماتة في كل مجلس وعلى جميع وسائل التواصل الاجتماعي؟ النساء يتصلن بي من الصباح حتى المساء، لا ليسألن عن حالي، بل ليتفرّجن على الفضيحة!

كانت كلماتها تتساقط كالرصاص، لكنها اصطدمت هذه المرة برجل لم يعد يشبه ذلك الزوج الوديع الذي عاش ثمانية عشر عاماً وهو يتراجع أمام كل صراخ. وقف يونس بهدوء غريب، وأسند ظهره إلى الطاولة، ينظر إليها بعينين خاليتين من الخوف. كان مرضه قد جرّده، دون أن تدري، من أقوى سلاحٍ امتلكته يوماً عليه. فالخوف من الخسارة هو ما يمنح الآخرين سلطتهم علينا؛ ومن لم يعد يخشى أن يخسر، لا يُقهر بالصراخ.

وفي ذروة الجدال، خرج الجدّ من المطبخ بخطوات متثاقلة، وفي يده ملعقة خشبية كبيرة كان يقلّب بها إبريق الشاي. توقّف أمام لمياء، وحدّق في وجهها طويلًا، ثم عقد حاجبيه وكأنه يحاول استرجاع اسمٍ ضاع من ذاكرته. وأخيراً قال بوقارٍ لا يخلو من براءة:

ـ أعرف هذا الوجه.. لكن الاسم هرب منّي، ربما أنتِ جارتنا أمّ عماد أو أمّ موسى لا أدري. على كل حال، بما أنكِ هنا، علّمي الخادمة الشقراء الجديدة

كيف تصنع قالب الحلوى. لدينا طحين فاخر بكميات كبيرة، ولا أريدها أن تفسده.

تجمّد يونس وزياد في مكانهما، وشعر كلاهما بأن قلبه سقط إلى قدميه. سارع يونس قائلًا بنبرة مصطنعة:

ـ يقصد.. يقصد أن أسعار التأمين تغيّرت هذا الأسبوع، وكنا نتحدث عن..

ولم يمهله زياد، فأكمل مرتبكاً:

ـ نعم.. وكنت أشرح له أيضاً أن مادة الفيزياء أصبحت أصعب من السابق.

لكن لمياء لم تكن امرأة يمكن أن تخدعها جملٌ مرتجلة. ضيّقت عينيها، وأخذت تتأمّل وجهيهما، ثم راحت تتجوّل في المنزل حتى وصلت إلى باب غرفة أمّ يونس المغلقة. قالت ببطء، وقد بدأت الشكوك تتجمّع في رأسها:

ـ أي خادمة؟.. وماذا يوجد داخل تلك الغرفة؟

ساد الصمت. كان الصمت وحده كافياً ليجيبها.

أخرجت هاتفها من حقيبتها، ولوّحت به أمامهما قائلة ببرودٍ أشدّ رعباً من الصراخ:

ـ أمامكما خياران. إما أن أعرف الحقيقة الآن، أو أتصل بالشرطة حالًا. لا يهمّني بأي تهمة سيأتون، سأبلغهم مثلًا أن زوجي السابق سرق مجوهراتي بعد أن طلّقني على الهواء مباشرةً، وعندها سيأتون ويقلّبون

هذا المنزل رأساً على عقب.. وأنا واثقة أنهم سيجدون ما يجعلهم يبقون هنا حتى الصباح.

داخل الخزانة، كانت سوسو تكاد تختنق. رائحة النفتالين امتزجت بأنفاسها المرتبكة، والحقيبة السوداء تضغط على ساقيها، بينما كانت تسمع كل كلمة تدور خارج الباب. أدركت أن الشرطة، إن حضرت، لن تمنحها فرصة لتشرح شيئاً.

وفجأة، انفتح باب الخزانة بصريرٍ جاف.

خرجت سوسو رافعة يديها، وهي تقول بصوت مرتجف:

ـ أرجوك.. لا تتصلي بأحد. سأخبرك بكل شيء.

شهقت لمياء وتراجعت خطوة إلى الخلف. وقفت النجمة التي تملأ صورها غرفة ابنها زياد أمامها، بثيابٍ رثّة، وشعرٍ مبعثر، وملامح امرأة هربت من أكثر من حياة في الوقت نفسه.

حاول يونس أن يقاطعها، لكنها لم تمنحه الفرصة. بدأت تروي ما حدث منذ لحظة اختطافها، ثم عملية السطو، ثم الحقيبة التي تحوّلت من كنزٍ إلى شحنة كوكايين.

كانت لمياء تنظر إليها مذهولة، كأنها تشاهد فيلماً عبثياً لا يمكن لعقلٍ طبيعي أن يصدّقه. زوجها السابق، وابنها، ونجمة استعراضية، وجدّ مصاب بالزهايمر.. جميعهم يقفون في غرفة واحدة حول شحنة مخدرات. أي كارثة هذه؟

لكن الصدمة لم تمنعها من إطلاق سهامها. التفتت إلى سوسو، وقالت باحتقار:

ـ كنت أعرف أن وراء طلاقه امرأة. إذاً أنتِ السبب، لأنك عشيقته التي شجّعتِه، وأوهمته بأنه أصبح بطلًا، ثم جررتِه إلى الإجرام!

ابتسمت سوسو ابتسامة ساخرة، ثم انفجرت ضاحكة ضحكة طويلة خرجت من عمق إنهاكها. قالت وهي تمسح دموع الضحك:

ـ بلّغي الشرطة إذاً.. لكن لا تنسي أن ابنك سيكون أول من تُوضَعُ الأصفادُ في يديه، فهو شريكنا الكامل في السطو. وعلى فكرة.. أنا لست عشيقة يونس، بل عشيقة ابنك "زيزو". صحيح أن فارق العمر بيننا كبير، لكنني قررت أن أتولّى تربيته بنفسي.. يا حماتي العزيزة!

احمرّ وجه لمياء حتى كاد ينفجر. فتحت فمها لتصرخ، لكن الكلمات خانتها. أما زياد، ففي تلك اللحظة شعر بأن الدنيا لا تسعه من الفرحة، لأنه سمع من نجمته المفضّلة كلاماً كهذا.

ورغم الغضب الذي كان يغلي في صدر لمياء، فإن عقلها بدأ يعمل بسرعته المعتادة. أدركت أن أي اتصال بالشرطة لن يدمّر يونس وحده، بل سيقضي أيضاً على مستقبل ابنها. فالأمومة، حتى في أشدّ لحظات غضبها، تحسب دائماً حساب من تحب قبل حساب نفسها.

ولهذا، ابتلعت ثورتها فجأة، وغيّرت نبرة صوتها كأن شيئاً لم يكن وقالت بهدوء مصطنع:

ـ حسناً.. يبدو أن الجميع تورّط، ولا فائدة من تبادل الاتهامات. فلنفكّر أولًا كيف نخرج من هذه الورطة.

نظر إليها يونس بشكّ، لكنه كان مرهقاً أكثر من أن يناقشها. أما هي، فبدأت تسأل بهدوء عن التفاصيل، وعن صاحب الحقيبة، وعن اسم طليق سوسو، وعن مكان المزرعة، وعن كل تفصيلة يمكن أن تبدو عابرة.

كانت تستمع أكثر مما تتكلّم.

وتحفظ أكثر مما تُظهر.

وبعد دقائق، قالت إنها تريد دخول الحمّام. دخلت وأغلقت الباب خلفها، وأخرجت هاتفها. بحثت عن الصفحة الرسمية لرجل الأعمال النافذ، فمن السهل على أي شخص الوصول إلى حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي، خاصة لأنه كان زوج نجمة كبيرة بحجم سوسو. ثم كتبت رسالة قصيرة، لكنها كانت كافية لتغيّر مسار الجميع:

"هناك حقيبة مفقودة تخصّك، وأنا أعرف تماماً من سرقها. إذا أردت استعادتها، اتصل بي فوراً على هذا الرقم."

أرفقت رقم هاتفها، وضغطت زرّ الإرسال. ثم نظرت إلى انعكاس وجهها في المرآة، وابتسمت ابتسامة مكرٍ صغيرة.

كانت تظنّ أنها أخيراً وجدت الضربة التي ستسحق بها كبرياء يونس، دون أن يخطر ببالها أن الرجل الذي تسعى للانتقام منه لم يعد يقاتل من أجل نفسه، بل من أجل أيامه الأخيرة فقط.. أيامٍ لم يبقَ منها إلا القليل. فبعض الانتقام يصل متأخراً، لا لأن الفرصة ضاعت، بل لأن الخصم لم يعد يملك ما يُنتزع منه.

الفصل الرابع عشر

حفلة في مركز التهوية

بينما كان الصالون يغلي بالاتهامات المتبادلة، وكانت لمياء تنتزع الاعترافات انتزاعاً، وسوسو تحاول تبرير ما لا يمكن تبريره، ويونس يقف بينهم كقائد أوركسترا فقد السيطرة على فرقته، كان الجدّ أبو يونس يعيش في عالم آخر تماماً؛ عالم لا تعرف فيه الذاكرة شيئاً عن المخدرات أو السطو أو الشرطة، بل عن فطائر السبانخ، وقوالب الحلوى، والطحين الفاخر، والخادمة المتمرّدة.

انسحب بهدوء من بينهم، كعميل سرّي ينفّذ مهمة وطنية، ودخل غرفة النوم حيث بقيت الحقيبة مفتوحة على مصراعيها. انحنى فوقها، وسحب أحد الأكياس الشفافة الممتلئة بالمسحوق الأبيض، ثم رفعه أمام الضوء بإعجاب بالغ، وكأنه خبير حبوب يفحص محصول الموسم. غمس طرف إصبعه في المسحوق، تذوّقه بطرف لسانه، وأومأ برأسه بإعجاب قائلًا:

ـ طحين ممتاز.. ناعم جداً، لكنه يحتاج إلى غربلة قبل العجن.

في تلك الأثناء، لمح زياد اختفاء جدّه، فتسلّل خلفه بحذر. وما إن فتح باب الغرفة حتى كاد قلبه يتوقّف؛ كان الجدّ يحتضن كيس الكوكايين بكلتا يديه كما يحتضن طفلٌ لعبته المفضّلة.

اندفع إليه وهمس بذعر:

ـ جدّي.. بالله عليك، ضع الكيس مكانه!

شدّ العجوز الكيس إلى صدره بعناد طفل حُرم من الحلوى، وقال:

ـ لن أضعه! أنتم تضيّعون الوقت في الثرثرة، وأنا سأصنع العشاء بيدي.

حاول زياد انتزاع الكيس دون أن يتمزّق، وقال وهو يلتفت نحو الباب خشية أن يسمعه الآخرون:

ـ هذا ليس طحيناً يا جدّي.. هذا سُمّ!

توقّف الجدّ فجأة، وحدّق في الكيس بعينين ضيّقتين، ثم سأل بجدية كاملة:

ـ سمّ؟.. تقصد سمّ فئران؟

لم يكن لدى زياد وقت للتفكير، فأومأ برأسه بسرعة:

ـ نعم.. سمّ فئران قويّ جداً.

وما إن سمع الجدّ ذلك حتى انفرجت أساريره، وصفّق بكفّه على فخذه قائلًا بفرح المنتصر:

ـ يا ولد، ولماذا لم تقل هذا من البداية؟! هذه المخلوقات اللعينة لم تتركني أنام ليلة واحدة، وكل مساء تقيم حفلة موسيقية داخل فتحات التهوية.

وقبل أن يتمكّن زياد من منعه، شقّ الجدّ الكيس بأظافره في حركة واحدة، ثم اندفع نحو فتحة التهوية الرئيسية في الغرفة، وأفرغ المسحوق كله داخلها وهو يصيح بانتصار:

ـ هذه نهايتكم أيتها الفئران الملعونة! اليوم أُعلن انتهاء جمهوريتكم!

في اللحظة نفسها انطلقت المروحة بقوة، فحملت السحابة البيضاء إلى داخل شبكة التهوية القديمة التي تربط غرف الشقة وممرّاتها، بل وتمتدّ إلى أجزاء من المبنى العتيق. أخذ المسحوق ينتشر في الهواء كغبار ناعم، ينساب عبر الفتحات والممرّات بصمت مخادع، بينما وقف زياد مذهولًا يراقب الكارثة وهي تسافر وحدها دون أن يستطيع اللحاق بها.

لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى بدأت النتائج تظهر بطريقة لم تخطر في بال أكثر كتّاب الكوميديا جنوناً. فالواقع، حين يقرر أن يمزح، لا يستأذن أحداً.

في الطابق العلوي، انطلقت ضحكة هستيرية لرجل لم يُعرف عنه أنه ابتسم يوماً. في الشقة المقابلة، راحت امرأة تصفّق وحدها وتغنّي أغاني الأعراس وهي تطبخ العدس. وفي الطابق الأرضي، توقّف بائع الذرة المتجوّل عن الصياح المعتاد، وجلس على الرصيف يضحك حتى سالت دموعه، من دون أن يعرف لماذا يجد بيع الذرة المشوية فجأة أطرف حدث في حياته. وحتى القطة العجوز التي تنام عادة فوق سياج الحديقة، بدت وكأنها تطارد ذيلها بحماسٍ لم يعرفه أحد فيها من قبل.

أما منور البناء، الذي اعتاد استقبال أصوات الشجارات اليومية، فقد امتلأ فجأة بالقهقهات والزغاريد، وكأنه تحوّل إلى مسرح مفتوح.

وداخل شقة يونس، انهارت آخر حصون العقل.

لمياء، التي كانت قبل دقائق تهدّد الجميع بالشرطة والسجون، لمحت شالًا قديماً على طرف الأريكة، فلفّته حول خصرها، وأخذت تؤدّي وصلة رقص شعبية بحماس لا يليق إلا بعرس في آخر الليل، وهي تطلق الزغاريد بين خطوة وأخرى.

ويونس، الذي كان يظنّ أن الموت يقترب منه مع كل دقيقة، وجد نفسه يحمل قدراً نحاسياً من المطبخ ويضرب عليه بملعقة خشبية بإيقاع ثابت، بينما يضحك حتى اغرورقت عيناه بالدموع، كأنه اكتشف أخيراً أن الحياة مزحة طويلة.

أما سوسو، فلم يلزمها أكثر من ثانيتين لتعود إلى مهنتها الأصلية؛ وقفت في منتصف الصالون، رفعت ذقنها، وأمسكت بفرشاة شعر كأنها ميكروفون، وبدأت تغنّي بكل ما أوتيت من استعراض، تؤدّي حركاتها المسرحية المعتادة، وكأنها على خشبة مهرجان عالمي لا في منزل آيل للسقوط.

وعلى الأرض، كان زياد والجدّ يجلسان متقابلين، يصفّقان بإيقاع واحد ويرددان الغناء مع سوسو ككورال محترف. وبين كل تصفيقة وأخرى كان الجدّ يلتفت إليه هامساً:

ـ أرأيت؟ قلت لك إن السمّ يقضي على الفئران بسرعة.. اسمع كيف اختفى صوتها!

لم يعد زياد يملك القدرة على شرح أي شيء، فاكتفى بالتصفيق معه وهو يضحك حتى أوشك أن يختنق.

وفي ذروة تلك الفوضى، بدأ جرس شقة الجيران المقابلة يرنّ دون توقّف، ثم فُتح الباب ليظهر رجل في منتصف الأربعين، ما زال يرتدي ملابس نومه، يحمل صحناً من الترمس، ويسأل بحماس من يفتح له الباب:

ـ هل وصلتم إلى مرحلة الحلويات؟ أحضرت الترمس فقط، لكن يبدو أن الحفلة تستحق أن أنزل بكل ما في ثلاجتي!

لم يمانع أحد في الداخل. بل استقبلته لمياء بزغرودة أخرى، وسحبته إلى وسط الدائرة ليصفّق معهم، بينما توالى وصول الجيران واحداً تلو الآخر، بعضهم بحجة "سماع الموسيقى العالية"، وبعضهم من دون أي حجة على الإطلاق، حتى امتلأت الصالة الصغيرة بغرباء يرقصون ويصفّقون ويهتفون، وكأن البيت العتيق قرر أن يستضيف الحيّ بأكمله في ليلة واحدة.

وفي ذروة تلك الحفلة العفوية، رنّ هاتف لمياء الموضوع فوق الطاولة.

التقطته وهي ما تزال تتمايل، فرأت رقماً مجهولًا، فضغطت زرّ الإجابة دون أن تتوقّف عن الرقص.

جاءها صوت رجل الأعمال بارداً وحاداً:

ـ أنتِ صاحبة الرسالة؟ أين الحقيبة؟

أطلقت لمياء زغرودة طويلة جعلت الرجل يبعد الهاتف عن أذنه، ثم قالت وهي تكاد تسقط من الضحك:

ـ الحقيبة؟ يا أستاذ، لقد تأخرت كثيراً! بضاعتك الكريمة أصبحت تتجوّل في فتحات التهوية مع الفئران.. وإذا أردت التعويض، فتفضّل إلى عندنا، فالحفلة بدأت منذ قليل والدخول مجاني!

ثم استدارت حول نفسها وهي تغنّي بأعلى صوتها كلمات مبتكرة لا تشبه أغنية بعينها، ثم أتبعتها بزغرودة ثانية كانت أعلى من الأولى.

على الطرف الآخر، وقف رجل الأعمال طليق سوسو مذهولًا، ينظر إلى الهاتف كأنه يشكّ في أنه اتصل بكوكب آخر. ضغط على فكّه بقوة، ثم التفت إلى مساعده وقال ببرود يسبق العاصفة:

ـ استخرج موقع هذا الرقم فوراً.. أريده بالشارع، والبناء، والطابق، وحتى رقم الشقة. أريد أن أعرف أي نوع من المجانين سرقني.

أغلق الخط بعصبية، بينما كانت الضحكات والزغاريد والموسيقى المرتجلة ما تزال تتصاعد من الشقة القديمة، وتخرج عبر النوافذ إلى ليل المدينة، كأن البيت كله قرر أن يحتفل فوق سحابة بيضاء من الجنون.

لم تمرّ ساعة واحدة حتى بدأت السحابة البيضاء تتلاشى شيئاً فشيئاً من رؤوسهم، تاركة خلفها إرهاقاً ثقيلًا وصداعاً بدأ يدقّ في الجماجم كطبل حرب. وفي تلك اللحظة بالذات، دون أي إنذار، انطفأت الأضواء في الشقة كلها.

قبل أن يفهم أحد ما يجري، طار الباب بركلةٍ واحدة. اقتحم الشقة رجالٌ ملثّمون بمسدسات ومصابيح يدوية باهرة، يصيحون بأوامر متضاربة. أما أصحاب الدار، فقد كانوا أشتاتاً بين بقايا انتعاشٍ واهم ونعاسٍ ثقيل، عاجزين عن إدراك الكارثة. سُحب الجدّ أخيراً وهو يتمتم بحنقٍ عن "ضيوفٍ ثقلاء وصلوا بلا موعد"، في حين كانت لمياء ترتعد وتصيح بصوتٍ متهدج، محاولةً إقناع أحد المهاجمين بأن "الحفلة انتهت، ولا داعي لكل هذا الصخب".

أُلقي بالخمسة في عربة نقل مغلقة، وانطلقت بهم في الظلام نحو وجهة مجهولة. وهكذا تنتهي كل حفلة عبثية: بصمتٍ مفاجئ، وظلامٍ لا يعرف أحد إلى أين يقود.

الفصل الخامس عشر

في النهاية تقريباً

لم يكن الصباح الذي استيقظوا عليه يشبه أي صباح عرفوه من قبل. خفّت نشوة الضحكات الهستيرية التي ملأت ليلتهم السابقة، وحلّ مكانها ألم ثقيل يسكن الرؤوس، وجفاف مرير في الحلق، وطعم معدني غريب يلتصق بالألسنة. فتح يونس عينيه بصعوبة، فرأى سقفاً إسمنتياً متشقّقاً تتدلّى منه لمبة يتيمة تتأرجح ببطء، بينما كانت رائحة الرطوبة والتبن والزيت المحروق تملأ المكان.

حاول أن يتحرّك، فاكتشف أن معصميه وقدميه مقَيَّدة بحبال كتّانية غليظة. التفت حوله، فرأى زياد إلى جواره، ثم لمياء، فالجدّ، وسوسو، وقد جلسوا جميعاً على أرضية خرسانية باردة داخل حظيرة قديمة ملحقة بالمزرعة نفسها التي اقتحموها قبل ليلتين.

كان الصمت خانقاً، إلى أن تناهت خطوات هادئة فوق الإسمنت. ارتفعت الرؤوس في وقت واحد.

دخل رجل الأعمال ببدلته الداكنة الأنيقة، يتّكئ على عصا ذات مقبض عاجي مصقول، وخلفه ثلاثة رجال يحملون بنادق هجومية حقيقية، لا تشبه المسدس البلاستيكي الذي ظنّ يونس، قبل يومين فقط، أنه قادر على صناعة جريمة كاملة به.

توقّف أمامهم، وأدار نظره بينهم ببطء، كما لو أنه يتفقّد بضاعة تالفة، ثم قال بصوت بارد خالٍ من أي انفعال:

ـ أين حقيبتي؟

ساد الصمت.

كانت لمياء أول من استعادت قدرتها على التفكير. تراجعت ملامح الذعر عن وجهها سريعاً، لتحلّ محلّها تلك الغريزة القديمة التي كانت تدفعها دائماً إلى النجاة بنفسها أولًا.

رفعت رأسها وقالت بسرعة:

ـ أنا من راسلك البارحة.. أقسم أنني كنت أريد مساعدتك. الحقيبة موجودة في البيت الذي اختطفتونا منه، في خزانة غرفة نوم حماتي زلفى. إن أطلقت سراحي فسأحضرها لك فوراً.. فقط دعني آخذ ابني معي، أما البقية فلا علاقة لي بهم.

نظر إليها الرجل طويلًا، ثم ابتسم ابتسامة قصيرة خالية من الدفء.

ـ أتعلمين كم مرة سمعت هذه الجملة في حياتي؟

اقترب منها خطوة أخرى، وأضاف بنبرة أكثر حدّة:

ـ فتّشت المنزل حتى آخر بلاطة. لم أجد حقيبتي.

تلعثمت لمياء للحظة، لكنها لم تتراجع. أشارت برأسها نحو الجدّ وقالت ببرود:

ـ إذاً عاقبه هو.. هذا العجوز الخَرِف هو من أفرغ محتوياتها داخل فتحات التهوية. أنا وابني لا ذنب لنا فيما فعله.

التفت الجميع نحو الجدّ، الذي كان يحاول فكّ عقدة الحبل بأسنانه وكأنه لا يسمع شيئاً مما يدور حوله. وقبل أن ينطق رجل الأعمال بكلمة، قال زياد بهدوء أربك الجميع:

ـ جدّي لم يفرغ سوى كيس واحد.

ساد الصمت من جديد. استدار رجل الأعمال ببطء نحو الفتى.

ـ ماذا قلت؟

رفع زياد رأسه، والتقت عيناه بعيني الرجل من دون أن تهربا هذه المرة.

ـ قلت إن جدّي أفرغ كيساً واحداً فقط.. أما بقية البضاعة، فأنا أعرف أين هي.

تغيّرت ملامح الرجل فوراً. انطفأ غضبه، وحلّ محلّه اهتمام حقيقي. اقترب حتى أصبح على بعد خطوة من زياد، ثم انحنى قليلًا وقال:

ـ وأنت.. ما زلت صامتاً كل هذا الوقت؟

لم يجب زياد مباشرة. كان ينظر إلى والده للحظة قصيرة، ثم أعاد بصره إلى الرجل وقال بنبرة ثابتة على نحو لم يعرفه يونس في ابنه من قبل:

ـ منذ يومين فقط تعلّمت درساً مهماً من أبي، وهو ألاّ أخاف من شيء. وأنا لست خائفاً منك. البضاعة معي أنا وحدي، وربما لن تراها في حياتك.

ابتسم رجل الأعمال بإعجاب صادق، وربّت بطرف عصاه على الأرض.

ـ جميل.. يعجبني الرجال الذين يولدون تحت الضغط.

ثم سأله:

ـ وما الذي تريده مقابل الحقيبة؟

ساد صمت ثقيل، حتى إن صوت تنفّس الحرّاس بدا واضحاً داخل الحظيرة. رفع زياد رأسه قليلًا وقال بثبات لم يكن يشبه الفتى الذي عرفه الجميع قبل أيام:

ـ أريد مليون دولار، وأن تعيد إلى نجمتي المفضّلة سوسو كل ما سلبته منها، من أموال وممتلكات وحقوق. عندها فقط سأدلّك على مكان الحقيبة.

لمعت في عيني سوسو دهشة لم تستطع إخفاءها. لم تكن تتوقّع أن يضعها هذا المراهق في مقدمة مطالبه، بينما كانت لمياء تنظر إليه وكأنها تراه للمرة الأولى.

ابتسم الرجل ابتسامة باردة، ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال:

ـ تفاوضني؟ وأنت مربوط أمامي كدجاجة تنتظر الذبح؟

ردّ زياد من دون أن يطرف له جفن:

ـ لا.. أنا أتفاوض لأنك تحتاج إليّ أكثر مما أحتاج إليك. إذا قتلتني الآن، فلن ترى الحقيبة مرة أخرى.

ظلّ الرجل يحدّق فيه لثوانٍ، ثم هزّ رأسه بإعجاب خفي.

ـ أعترف.. بدأت أحبّ هذا الصغير.

وقبل أن يستأنف حديثه، تحرّك الجدّ داخل قيوده، ورفع رأسه قائلًا بصوت جهوري:

ـ وأنا أيضاً عندي طلب.

استدارت إليه كل الرؤوس في لحظة واحدة. قال الرجل بضيق:

ـ ماذا تريد أنت؟

أجاب العجوز بوقار لا يناسب الموقف إطلاقاً:

ـ برغر دجاج.. مع بطاطا مقلية، وكولا مثلّجة.. وإذا عندكم بعض المثلجات فلا مانع.

ساد صمت قصير، ثم انفجر أحد الحرّاس ضاحكاً قبل أن يتلقّى نظرة حادة من سيّده، فعاد إلى الجمود فوراً. أما طليق سوسو، فتنهّد وهو يدلّك جبهته وقال:

ـ أقسم أنني طوال حياتي لم أختطف عائلة أكثر غرابة منكم.

ثم استدار نحو زياد، وعادت القسوة إلى صوته.

ـ انتهى وقت المزاح. إما أن تخبرني الآن، أو أبدأ بقتل واحد منكم كل دقيقة.

أجاب زياد بهدوء أربكه أكثر من أي تهديد:

ـ افعل ما تشاء. الجميع هنا يجهلون مكان الحقيبة.. وأنا لن أتكلّم.

رفع الرجل يده ببطء، فاستعدّ الحرّاس لرفع أسلحتهم. في تلك اللحظة، التفت يونس إلى ابنه. لم ينطق بكلمة، لكنه شعر بشيء لم يشعر به طوال حياته. كان يرى أمامه شاباً لم يعد يحتاج إلى حماية أبيه، بل صار قادراً على حماية الجميع. ورغم فظاعة الموقف وسوداويته، ارتسمت على شفتَي يونس الذابلتين ابتسامة فخر مكتومة، وفكّر في قرارة نفسه: إذا نوت الأقدار لنا الخروج من هذا المأزق، فسأترك بعد موتي رجلًا حقيقياً.. لا يشبه عجز أبيه، ولا خرف جدّه. فأعظم إرثٍ يتركه أب لابنه ليس مالًا، بل لحظة يرى فيها الابن نفسه رجلًا لأول مرة.

لكن القدر كان قد أعدّ مشهداً آخر.

اهتزّت الحظيرة فجأة اهتزازاً عنيفاً، تبعه انفجار مكتوم عند السور الخارجي، ثم دوّى وابل من صفّارات الشرطة، واختلطت به صيحات متلاحقة وإطلاقات نارية كثيفة.

التفت الحرّاس جميعاً نحو الخارج في اللحظة نفسها، بينما اندفع أحد الرجال إلى الداخل وهو يصرخ:

ـ الشرطة! الشرطة اقتحمت المزرعة!

تبدّلت ملامح رجل الأعمال للمرة الأولى. لم يعد السيد الواثق الذي يدير المشهد، بل رجلًا فوجئ بأن حصنه لم يعد حصناً.

في الخارج، كانت سيارات الأمن تطوّق المكان من جهاته الأربع. لم تأتِ بحثاً عن يونس أو سوسو، بل كانت تتعقّب نشاط رجل الأعمال بعد سلسلة البلاغات الغريبة التي أغرقت مراكز الشرطة طوال الليل؛ سكان بناية كاملة يشتكون من ضحكات جماعية، وتصرّفات هستيرية، وروائح

مجهولة، وشهادات بدت للمحقّقين في البداية أقرب إلى الهذيان منها إلى البلاغات الرسمية، لكن خيطاً واحداً -- رجال ملثّمون اقتحموا شقة واعتقلوا خمسة أشخاص أمام أعين الجيران -- قادهم أخيراً إلى هذه المزرعة.

في لحظات، تحوّلت الحظيرة إلى فوضى عارمة. ركض الحرّاس نحو مواقعهم، وتطايرت الأوامر المتضاربة، بينما انشغل رجل الأعمال بإدارة الاشتباك في الخارج.

استغلّ يونس تلك الثواني النادرة، وانحنى بكل ما بقي في جسده من قوة، وبدأ يحتكّ حباله بالحافة الصدئة لعمود معدني. وبعد محاولات يائسة انقطعت العقدة أخيراً.

أسرع إلى تحرير زياد، ثم لمياء، فسوسو، وأخيراً الجدّ، الذي نهض وهو ينفض الغبار عن ثيابه متذمّراً:

ـ والله إنها أسوأ ضيافة تلقّيتها في حياتي.. حتى البرغر لم يصل!

ولم ينتظر أحد للردّ عليه.

وسط الدخان، وصوت الرصاص، وصفّارات الشرطة التي كانت تقترب أكثر فأكثر، اندفع الخمسة عبر باب جانبي متهالك أشارت إليه سوسو، يركضون بين الأشجار الكثيفة بلا وجهة واضحة، بينما كانت المزرعة خلفهم تتحوّل إلى ساحة معركة حقيقية، لا يعرف أحد فيها من يطارد من، ولا من سينجو حتى شروق الشمس. ففي الفوضى الحقيقية، يختفي الفرق بين الصياد والفريسة، ولا يبقى إلا من يركض أسرع.

الفصل السادس عشر

للأسف!...

لم يتوقّفوا عن الركض حتى ابتلعتهم أطراف المدينة، حيث يقبع مستودع قديم مهجور، نصف سقفه منهار، وتغطّي جدرانه طبقات من الغبار والرطوبة. هناك فقط، بعدما انقطع صدى الرصاص وصفّارات الشرطة، سمح لهم التعب أن يسقطهم أرضاً.

كان الجميع يلهثون. جلس زياد مستنداً إلى الجدار، بينما انحنت سوسو فوق ركبتيها تحاول التقاط أنفاسها، واكتفت لمياء بإغماض عينيها للحظات كأنها تحاول إقناع نفسها بأن ما عاشته خلال اليومين الماضيين لم يكن حلماً محموماً. أما الجدّ، فقد أخذ يتفقّد المكان بنظرات متأمّلة، ثم سأل باستغراب:

ـ هذا ليس بيتي.. من سرق بيتي؟.. أيعقل أن تكون "زلفى" هي مدبّرة هذه المؤامرة؟

لم يجبه أحد.

كان يونس يجلس بعيداً عنهم، مسنداً ظهره إلى عمود إسمنتي متشقّق. بدا شاحباً أكثر من أي وقت مضى، لا بسبب المرض الذي ينهش جسده، بل بسبب القرار الذي كان يتشكّل في داخله ببطء.

كان يعلم أن الهروب لن يدوم طويلًا؛ فالشرطة تبحث عنهم، ورجل الأعمال لن يتوقّف عن مطاردتهم، والحقيبة التي يعرف الجميع قيمتها

ما زالت موجودة، وما دامت موجودة فلن تنتهي هذه المطاردة أبداً. فبعض الأمور لا تُحسم بالهروب، بل بوقفة أخيرة يختار الإنسان توقيتها بنفسه.

رفع رأسه، وتأمّل وجوههم واحداً واحداً. رأى في زياد شاباً تغيّر خلال يومين أكثر مما يتغيّر إنسان في سنوات، ورأى في لمياء امرأة سقط عنها قناع الغضب، وفي سوسو إنسانة أنهكها بريق الشهرة الكاذب، أما والده فكان ما يزال يراقب سقف المستودع وكأنه يبحث عن عشّ حمام قديم.

ابتسم يونس ابتسامة باهتة، ثم قال بصوت هادئ، لكنه حاسم:

ـ انتهت اللعبة.

ساد الصمت. تابع وهو يضمّ كفّيه إلى بعضهما:

ـ الشرطة ستصل إلينا عاجلًا أم آجلًا، وطليق سوسو لن يتركنا نعيش. وإذا عثروا على الحقيبة معنا، فلن يصدّق أحد أننا سرقناها بالصدفة. بالنسبة إليهم، نحن عصابة كاملة.. خطف، وسرقة، ومخدرات.

تطلّع إلى زياد، ثم أكمل بصوت أكثر رقّة:

ـ أما أنا.. فما زلت أظنّ أن أيامي معدودة. السجن بالنسبة لرجل يحتضر ليس أكثر من غرفة انتظار أطول قليلًا. لكن بالنسبة لكم.. هو نهاية الحياة.

انتفض زياد واقفاً، وقد احمرّ وجهه بشدة.

ـ لا يا أبي.. لا تقل هذا!

لكن يونس رفع يده بلطف، طالباً منه أن يدعه يكمل.

ـ سأُسلّم نفسي للشرطة. سأعترف بأن الحقيبة لي وحدي، وأنكم لا علاقة لكم بشيء. سأقول إنني خطفت سوسو وحدي، وسرقت المزرعة وحدي، وأخفيت المخدرات وحدي. لن ينجو الجميع إلا إذا حمل شخص واحد كل هذا العبء.. وأنا الشخص الوحيد الذي لم يعد لديه ما يخسره.

هبّ زياد نحوه بعينين دامعتين، وجثا أمامه قائلًا بانفعال:

ـ لن أسمح لك! حتى لو عذّبوني فلن ينطق لساني بمكان الحقيبة، ولن أتركك تموت داخل زنزانة باردة.

ابتسم يونس، ومدّ يده يمسح شعر ابنه كما كان يفعل وهو طفل صغير.

ـ لهذا السبب بالذات.. يجب أن أفعلها يا زياد. لأنك لم تعد طفلًا، ولأنني أريد أن أمنحك فرصة تعيش بها حياة لم أستطع أنا أن أعيشها.

عندها فقط، التفتت لمياء إليه وقد انعقد حاجباها في دهشة حقيقية.

ـ ماذا تقصد.. لم يعد لديك ما تخسره؟

نظر إليها يونس طويلًا، ثم قال بهدوء:

ـ لأنني مصاب بالسرطان يا لمياء.. والأطباء أخبروني أن ما بقي لي من العمر لا يُقاس بالسنوات، بل بالأيام.

شعرت لمياء كأن الأرض انسحبت من تحت قدميها. حدّقت في وجهه الشاحب، وفي الهزال الذي كانت تفسّره دائماً بالإهمال والكسل، وفهمت، متأخرة جداً، أن الرجل الذي كانت تحاربه منذ أشهر كان يخوض حرباً أخرى، بصمت، ضد الموت نفسه. والآن فقط فهمت سبب انفجاره في الحلقة الكارثية عبر الأثير الإذاعي.

تقدّمت نحوه بخطوات مرتجفة، ثم جثت أمامه، وأخذت تبكي للمرة الأولى منذ سنوات، لا غضباً ولا عناداً، بل ندماً خالصاً.

قالت وهي تكاد تختنق بعبراتها:

ـ لماذا.. لماذا لم تخبرني يا يونس؟ لماذا تركتني أظنّ أنك تخلّيت عنّا بإرادتك؟

نظر إليها بعينين هادئتين، وربّت على كتفها برفق.

ـ لأنني لم أرد أن ترافق الشفقة آخر ما تبقّى لي من الحياة.. كنت أريدكم أن تكرهوني، لا أن تنتظروا موتي كل صباح.

أما الجدّ، فكان يقلّب نظراته بين الوجوه الباكية، ثم تساءل ببراءة تامة:

ـ متى سنعود إلى البيت؟ أريد أن أتأكّد إن كانت الفئران قد ماتت في التكييف أم لا؟

سوسو، التي غطّت وجهها بيديها، اقتربت من يونس ونظرت إليه باحترام عميق:

ـ لم أعرف في حياتي رجلًا بطيبة قلبك ونُبلك يا يونس.. لن أنساك ما حييت.

التفت يونس إلى ابنه زياد، ونظر في عينيه المليئتين بالرفض والانكسار. قال له بنبرة أبوية دافئة:

ـ يا زياد.. الشرطة ستأخذنا جميعاً إن لم أفعل هذا. ولو متّ أنا وأنتم في السجن، فمن سيخرج ليدفنني؟ من سيزور قبري؟ اترك لي فرصة واحدة لأمارس فيها دور الأب الناجح قبل أن أرحل.

انهارت مقاومة زياد الأخيرة. انهمرت دموعه بغزارة، واحتضن والده بقوة، ثم أومأ برأسه مستسلماً.

بيد مرتجفة، أخرج يونس هاتفه واتصل برقم الطوارئ. بلّغ عن موقعه، وأعطاهم تفاصيل الحقيبة كاملة.

مضت الدقائق التالية بطيئة كأن الزمن نفسه قرر أن يشاركهم ثقل اللحظة. وما هي إلا نصف ساعة حتى ظهرت أضواء سيارات الشرطة تشقّ ظلام أطراف المدينة، قبل أن تتوقف تباعاً حول المبنى المهجور. انفتحت الأبواب، وانتشر رجال الأمن في محيط المكان بحذر، فيما دوّت أوامرهم عبر مكبّرات الصوت تطالب من في الداخل بالخروج رافعي الأيدي.

تنفّس يونس بعمق، ثم استدار نحو أفراد عائلته. وقعت عيناه على زياد أولًا، فابتسم له ابتسامة هادئة تحمل من الطمأنينة أكثر مما تحمل من الحزن، ثم مرّر نظره على لمياء، فالجدّ، فسوسو. لم يقل شيئاً. شعر أن

الكلمات فقدت جدواها، وأن كل ما كان يريد قوله قد قاله بالفعل خلال اليومين الماضيين.

فتح الباب، وخرج بخطوات ثابتة إلى العراء، رافعاً يديه ببطء. تقدّم أحد الضباط نحوه، أمسك بمعصميه، وأطبق الأصفاد المعدنية حولهما بصوت جافّ، بدا ليونس كأنه الفصل الأخير من حكايته. ومع ذلك، لم يشعر بالهزيمة؛ على العكس، ارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة مطمئنة، فقد كان يعتقد أنه نجح أخيراً في أداء الدور الوحيد الذي أخفق فيه طوال حياته: أن يكون أباً يحمي ابنه، ولو كان الثمن ما تبقّى من عمره.

وقف زياد خلف الشريط الأمني، يراقب المشهد بعينين غارقتين في الدموع، بينما كانت لمياء تخفي وجهها بكفّيها، وسوسو تقف صامتة، وقد اختفى لأول مرة ذلك البريق المصطنع الذي اعتادت أن تواجه به العالم. حتى الجدّ، الذي لم يكن يدرك تماماً ما يجري، ظلّ يحدّق في رجال الشرطة باستغراب، كأنه ينتظر منهم أن يدعوه إلى احتساء الشاي.

وفي اللحظة التي همّ فيها الضابط باقتياد يونس إلى سيارة الشرطة، انطلق رنين هاتفه المحمول، الذي كان موضوعاً فوق غطاء إحدى السيارات بعد تفتيشه. التفت يونس غريزياً نحو الصوت، ثم نظر إلى الشاشة. ظهر اسم المستشفى يضيء على الزجاج.

رفع رأسه إلى الضابط وقال بصوت خافت:

ـ حضرة الضابط.. أرجوك. هذه آخر مكالمة في حياتي.. دعني أجيب.

نظر الضابط إليه لحظة، ثم تناول الهاتف بنفسه، ضغط زرّ الإجابة، ووضعه على أذن يونس، بينما بقي ممسكاً بالأصفاد.

جاء صوت الطبيب من الطرف الآخر مضطرباً، متلاحق الأنفاس، كأن صاحبه يركض وهو يتحدث:

ـ أستاذ يونس؟ أرجوك اسمعني جيداً.. حدث خطأ كارثي في المختبر. لقد تبدّلت عيّنات الدم والأنسجة بينك وبين مريض آخر يحمل اسماً مشابهاً لاسمك. أعدنا الفحوص قبل قليل.. تقريرك الحقيقي وصل الآن.. أنت سليم تماماً. لا يوجد أي ورم، ولا سرطان، ولا شيء مما أبلغناك به. أنت بخير.. هل تسمعني؟ أنت بخير!

توقّف العالم.

لم يعد يونس يسمع شيئاً بعد تلك الكلمات. بقي محدّقاً في الفراغ، فيما انزلقت ابتسامته ببطء عن وجهه، وحلّ مكانها ذهول لا يشبه أي شعور عرفه من قبل. طوال الأيام الماضية كان يركض نحو الجريمة لأنه ظنّ أن الموت يطارده، أما الآن فقد اكتشف أن الموت لم يكن خلفه أصلًا.. وأنه هو من ركض بنفسه إلى السجن. فأخطر ما في الخوف من شبح، أننا قد نركض منه طويلًا حتى نصطدم بحقيقة لم تكن موجودة أصلًا.

أنزل بصره إلى الأصفاد التي تطوّق معصميه، ثم رفع عينيه إلى سيارات الشرطة، وإلى الضباط المدجّجين بالسلاح، ثم التفت ببطء نحو زياد، الذي كان يحدّق فيه من بعيد، لا يفهم سبب ذلك الصمت الطويل.

هزّ يونس رأسه في مرارة، وانفرجت شفتاه عن ضحكة قصيرة، سوداء، خالية من أي فرح. ثم قال وهو ينظر إلى ابنه:

ـ زياد.. يبدو أنني.. سأعيش.

صمت لحظة، ثم أضاف وهو يرفع الأصفاد قليلًا أمامه:

ـ للأسف.

وفي تلك اللحظة، وسط سيارات الشرطة، والأصفاد، والدموع، أدرك يونس الحقيقة التي ظلّ يبحث عنها طوال حياته: لم يكن الإنسان بحاجة إلى أن يعرف موعد موته كي يتعلّم كيف يعيش، بل كان بحاجة إلى أن يتوقّف عن تأجيل الحياة، حتى لا يكتشف، متأخراً جداً، أنه ارتكب كل حماقاته باسم مستقبل لم يكن مهدَّداً أصلًا.

« إذا بلغتَ الصفحة الأخيرة...

وشعرتَ أنك عدتَ إلى نقطة الصفر،

فلا تحزن؛ فالصفر ليس فراغاً،

بل هو المكان الوحيد الذي

لا يمكنك السقوط بعده»

ثمة رقم واحد يخيف الإنسان أكثر من أي رقم آخر، لا لعظمه، بل لأنه «لاشيء»: الصفر.
عندما يصل «يونس» إلى صفره الشخصي، وتسقط كل الأرقام من حوله، يقرر أن يفعل ما لم يجرؤ عليه طوال ثمانية عشر عاماً: أن يقول الحقيقة. ليست حقيقة كبرى عن الوجود، بل حقائق صغيرة ومؤجلة: عن زوجة قست لأنها خافت، وعن ابن لم يعرف كيف يحضنه في الوقت المناسب.
رواية عن أب يفقد كل شيء ليربح نفسه، وحقيبة سوداء تتلاعب بالأقدار، وفيلم سينمائي إنساني يقبت أن الحياة، في أحلك لحظاتها، قد تكون مضحكة إلى حد الألم.
أهلًا بك في الصفر.. حيث يبدأ كل شيء.

فراس جبران